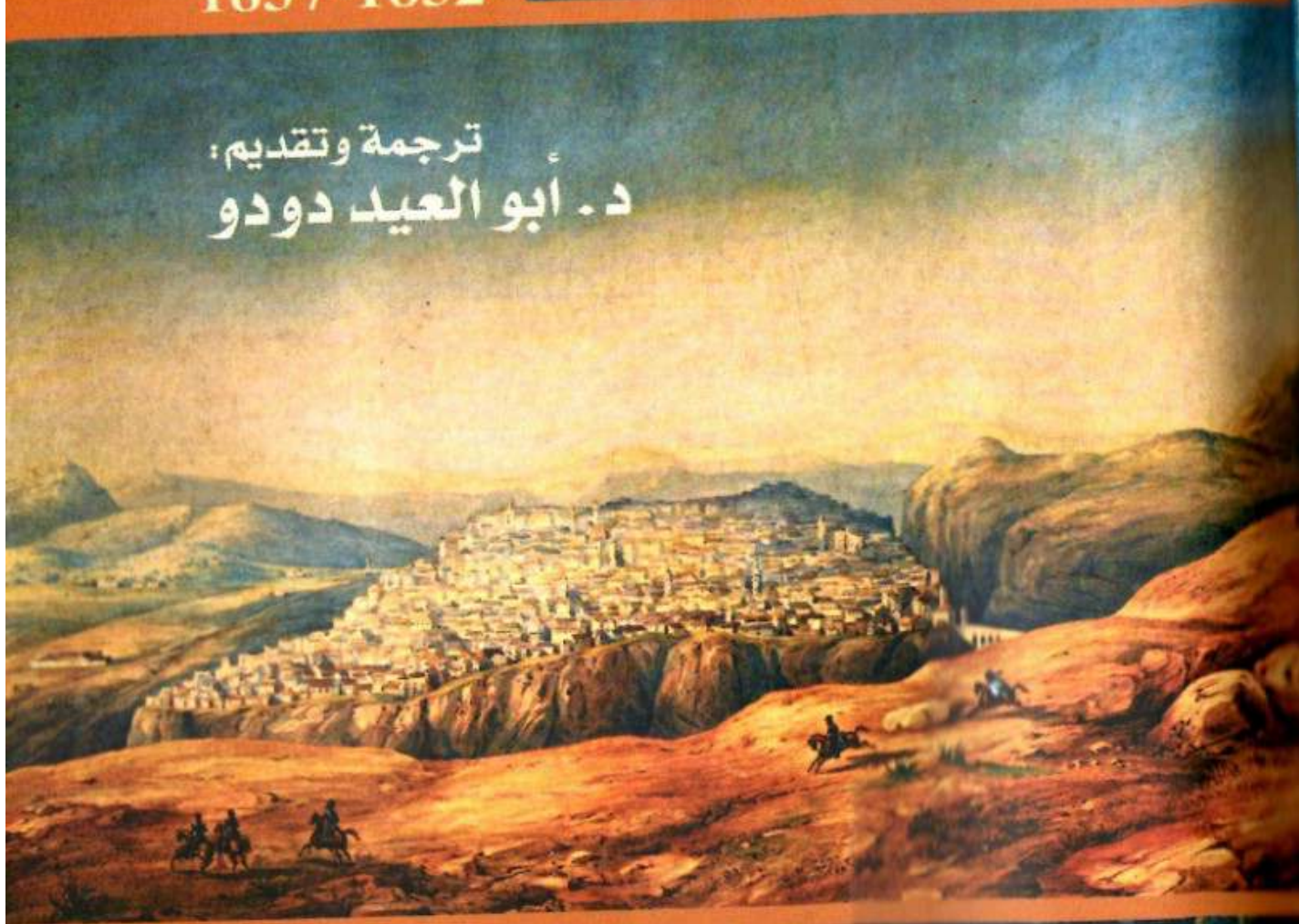


فندلين شلوصر

# قسطنطينة أيام أحمد باي

1837-1832

ترجمة وتقديم:  
د. أبو العيد دودو



694  
27  
348  
10









صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة  
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007  
يُهدي ويُوضع في المكتبات ولا يباع



فندلين شلوصر

قسنطينة  
أيام أحمد باي

أنا  
الله

الخير

بعد ذلك

أن

العد

د



مكتبة الوثائق  
الجمهورية التونسية





## مقدمة

هذه وثيقة جديدة هامة ، تضاف الى الوثائق الأخرى ، التي تتحدث عن فترة من فترات تاريخنا في القرن الماضي ، وتضيء بعض جوانبه الغامضة . وإذا كانت بعض الوثائق قد قدمت لنا معلومات قيمة عن مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي ، وذلك ما فعلته مذكرات بفايفر ، التي نشرت وعرفها القراء قبل سنوات ، فإن هذه الوثيقة الجديدة تتحدث هي الأخرى عن مدينة قسنطينة قبل ان يتم احتلالها ، وتبرز بصورة خاصة الصراع الذي عرفته منطقة الشرق الجزائري بكاملها في تلك الفترة ، كما تقدم صورة صادقة عن ظروف الاحتلال وملايساته العديدة ، دون أن تغفل دور المواطنين في مقاومة المعتدي ومحاولتهم الوقوف في وجه جنوده وأمام مدافعه الفاتكة .

ومؤلف هذه الوثيقة شاب ألماني أيضا ، وقع له ما وقع لمواطنه سيمون بفايفر ، مع فارق واحد ، وهو أن المؤلف فندلين شلوصر لم يرغب على المجيء الى الجزائر ، وإنما جاء إليها طوعا ، وعن رغبة تامة ، فشاءت الظروف أن يعرف نفس المصير ، ويكتوي بنفس النار التي اکتوى بها مواطنه .

ومعلوماتنا عن حياة فندلين شلوصر محدودة ، فهي لا تتعدى ما أورده هو نفسه في كتابه على غرار ما فعله بفايفر أيضا . فقد ذكر أثناء حديثه عن حياته السابقة أنه ولد في مدينة ايرفورت ، وأن أسرته كانت فقيرة ، يزيد عدد أفرادها عن الحد المطلوب ، فاضطرته الظروف الى التخلي عن دراسته الثانوية ، والتحق بعد ذلك بمدرسة مهنية ، وما أن أنهى الفترة التعليمية المحددة ، حتى التحق بأحد المعامل المنجمية ، غير أن العمل به لم يرق له ، فانتقل ، وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، الى منطقة هارتس المعروفة بمناجمها العديدة . ولم يوفق في هذه المرة أيضا في العثور على عمل مناسب ، ولكنه وفق ، على حد تعبيره ، في شيء آخر . فقد تعرف على عدد من زملائه في المهنة ، فعرف منهم أن شخصا انجليزيا يبحث عن عمال منجمين ليتعاقد معهم لحساب شركة انجليزية ، وورسلهم الى البرازيل للعمل في المناجم التابعة لهذه الشركة .

ولم يفكر شلوصر في الأمر طويلا ، فقد اتصل بذلك الشخص الانجليزي في الحال ، وتحدث معه عن شروط العمل في البرازيل ، ثم وقع معه العقد ، وسافر الى البرازيل في أواسط نوفمبر سنة 1827 . وبعد إقامة قصيرة في عاصمتها ، توجه الى مكان عمله في منطقة لا تبعد كثيرا عن الساحل . ولكنه لم يلبث أن ندم على تركه لوطنه ، وعذبه الحنين ، فبدأ يفكر في العودة اليه . وصادف أن التقى في تلك الفترة بقس ألماني عجوز ، فأشفق عليه ، ونصحه بالعودة الى بلاده قبل أن يهرم مثله ويستحيل عليه مغادرة هذه القارة التي نزع إليها . وأثرت كلماته في نفس شلوصر ، فعمل بنصيحته الأبوية ، وعاد الى وطنه في سنة 1829 في حالة بثيسة ، فبعد ان اشتغل ملاحا في الباخرة التي حملته الى الشواطئ الأوروبية ، رجع الى مسقط رأسه مشيا على قدميه .

وأقام شلوصر فترة بين أهله وذويه ، ثم عاوده الحنين الى الغربة ، واستبدت به الرغبة في القيام بمغامرة جديدة ، فسافر الى فرنسا ، وانضم الى الفرقة الأجنبية ، ضاربا بنصيحة من أشفق على شبابه عرض الحائط وأبحر معها الى الجزائر في شهر جويلية سنة 1831 ، وبقي في العاصمة بضعة أشهر ، وكانت إقامته « بحوش مصطفى باي » . ولما نقل مقر فرقته الى « حوش القنطرة » بالحراش ، وقع مع عدد من زملائه يوم 12 أبريل 1832 بين أيدي رجال المقاومة الجزائرية ، فحمل الى المناطق الجبلية ، وهناك اشتراه أحد المرابطين ، فعمل عنده فترة ، انتقل بعدها عن طريق البيع الى « حوش ابن زعمون » ، ولم يبق عنده أيضا فترة طويلة ، اذ قدمه بدوره هدية الى سيدي علي بن عيسى ، مرابط « قرومة » بنواحي الأخضرية ، وفي النهاية استقر به المقام في مدينة قسنطينة ، فعاش في قصر أحمد باي بصفته مملوكا من مماليكه ما يقرب من خمس سنوات مارس خلالها عدة أعمال ، كان آخرها تولية لمنصب المدفعي في جيش أحمد باي ، وهو ما سيجلده القارئ مفصلا في هذا الكتاب الذي بين يديه .

لقد عاد شلوصر الى بلاده بعد احتلال قسنطينة مباشرة ، وأصدر كتابه هذا سنة 1839 ، وبذلك تنتهي معلوماتنا عن حياته الخاصة ، بحيث لا نعرف عنها شيئا في المراحل التالية . واذا استثنينا فهرس الكتب الألمانية ، الذي ذكر اسمه وعنوان كتابه مجردا عن أية معلومات إضافية ، فاني لم أجد له ذكرا في كتب التراجم والموسوعات الألمانية التي أمكنني الاطلاع عليها في مكتبة جامعة الجزائر . وهذا لا ينفي طبعاً أن تكون مصادر أخرى قد تحدثت عنه فيما بعد ، ولا سيما الصحف التي أولته عناية كبيرة أيام إقامته في الجزائر ، كما أشار الى ذلك هو نفسه في مقدمة كتابه .

ووضع المؤلف في الأصل عنوانا طويلا لكتابه هذا ، حيث سماه [رحلات في البرازيل والجزائر ، أو مصائر فندلين شلوصر البومباجي السابق لأحمد باي بقسنطينة] . وقد قسم كتابه الى جزئين ، فتحدث في الجزء الأول منه عن حياته في البرازيل فيما بين سنة 1827 و 1829 ، وصفحات هذا الجزء لا تتجاوز أربعاً وثلاثين صفحة ، وقد ضربت عنه صفحا بطبيعة الحال . أما الجزء الثاني فقد خصصه للحديث عن إقامته في الجزائر ، اذ كانت حياته فيها أطول وأكثر تنوعا ، وجعل عنوانه [الجزائر 1831 — 1837] ، ولكنه لم يخص مدينة الجزائر فيه الا بصفحات قليلة ، ولهذا ارتأيت تغيير العنوان الأصلي للكتاب حتى يكون عنوانه أكثر دلالة وموضوعه أكثر تحديدا ووضوحا .

وقد صدر المؤلف كتابه بابيات شعرية ، اقتبسها من فصيحة طويلة للشاعر الألماني الشهير فريدريش شيلر [ 1759 — 1805 ] ، يروي فيها قصة الغطاس الذي نزل الى أعماق البحر ليعود بكوب ذهبي ، كان للملك قد ألقى به فيه عمدا ويقصد التسلية لا غير . وقد وجدها المؤلف فيما يبدو مطابقة لما عاناه هوفي الجزائر . وهذه الأبيات هي :

وهناك تعلقت بناتي من الصخر ، وقد  
أرعبني بعدي عن النجدة الانسانية ،  
فقد كنت القلب الوحيد النابض تحت البرقات ،  
أتنفس في حدة رهيبة ، عميقا  
تحت صدى الكلمة الانسانية الطيبة ،  
لدى جبابرة القفر الأليم .

وقد ذكر شلوصر في مقدمة كتابه القصيرة أنه عاش في الجزائر كواحد من أهاليها ، ولذلك فإنه سيقدم صورة أمينة عن حياة سكانها وعن أخلاقهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ستكون أكثر صدقا من كل ما عرفه الناس عنهم عن طريق الجرائد والصحف السيارة ، واتهم الصحافة الفرنسية بأنها لم تكن صادقة .. على الأقل فيما نشرته عنه أثناء عودته الى وطنه : وكان هذا كله هو ما حدا به الى وضع كتابه عن الجزائر . واعترف أيضا بأنه ليس عالما ، فثقافته المحدودة لم تسمح لا بوصف الآثار التاريخية ولا بقراءة النقوش الرومانية وغيرها ، وهي معارف كان في امكان شخص آخر أن يهتم بها ويحاول تحليلها ونشر استنتاجاته عنها بين الناس ، وأبدى أسفه لعدم استطاعته دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة ، واعتذر عن ذلك بأن الأهالي أنفسهم كانوا عاجزين عن مساعدته في فهم القواعد النحوية وطريقة بناء التراكيب اللغوية .

يقدم شلوصر في كتابه هذا معلومات كثيرة ومتنوعة ، ليس في نيتي أن أتحدث عنها بالتفصيل في هذه المقدمة ، ولا أن أتدخل بين المؤلف والقارئ المتخصص ، وإنما أكتفي بالإشارة الى أنه يحدثنا عن عدة شخصيات جزائرية ، لعبت دورا تاريخيا مهما ، ومع ذلك بقيت معلوماتنا عنها ضئيلة ، فهو يحدثنا بنوع من التفصيل عن حياة ابن زعمون ، وعلي بن عيسى ، وأحمد باي ، وأحمد بومزراق ، ويصفهم وصفا مجسما ، ويستعرض برنامج بعضهم اليومي ، ويعلق على ذلك كله من وجهة نظره الخاصة . ويذكر لنا الشيء الكثير عن الأوضاع في مدينة قسنطينة أيام الحملة الأولى والحملة الثانية التي تم احتلالها فيها وبين موقف المواطنين من العدو الاجنبي ، دون أن ينسى أن يحدثنا أيضا عن الحياة الشعبية بأفراحها وأحزانها في المدينة والريف ، ويصورها تصويرا رائعا ، فيتيح بذلك لكل منا أن يرى نفسه في البيئة التي نشأ بها ، ويعيد الى ذهنه بعض الصور التي نسيها أو كاد ينساها . وإذا لم تكن المعلومات التي يوردها شلوصر كلها صحيحة كل الصحة ، لعدم وجود وثائق أخرى ، فإن ما يمكن مقارنته منها بالوثائق المتوفرة على الأقل لا يقبل الشك في صحته ، وقد حاولت جهدي — وهو جهد انسان غير متخصص — الإشارة الى مواطن التشابه بين هذه الوثيقة — وثيقة شلوصر — وبقية الوثائق الأخرى التي بين يدي .

وقبل أن أضع القلم أرى من واجبي أن أقدم شكري الخالص إلى صديقي الدكتور فريدريش  
كوخفاسر ، رئيس تحرير مجلة التبادل الثقافي ، التي يصدرها معهد العلاقات الخارجية بمدينة شتوتجارت ،  
وقد سبق له أن أصدر قبل سنوات عددا خاصا عن الجزائر الحديثة ، فإليه وحده يعود الفضل في حصولي  
على هذا الكتاب الهام بعد أن فشلت جميع محاولاتي مع المؤسسات الوطنية ! وأوجه شكري أيضا إلى  
صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي أرشدني إلى بعض المراجع التاريخية المتعلقة بمدينة قسنطينة ،  
كما أشكر من ساعدني من قريب أو بعيد على إنجاز هذه الترجمة وتقديمها إلى المطبعة وأمل أن يجد فيه  
المتخصصون ما يضيء بعض ما غمض من فترات التاريخ الماضية .

أبو العيد دودو

الجزائر ، بن عكنون . 1977/3/21



## الفصل الأول

### مدينة الجزائر - هوس القنطرة - هجوم البدو والوقوع في الأسر

لم أكد أقضي سنة ونصفا في وطني حتى عاودتني الرغبة في السفر ، لان التجارب التي عشناها في البرازيل لم تترك في نفسي أثرا عميقا ، يحول بيني وبين أن أطمح في جزء من العالم الى تحقيق ما لم يقدر لي تحقيقه في الجزء الآخر . فالانسان يعتقد اعتقادا جازما أنه كلما أبتعد أكثر كانت حياته أوفر سعادة وحرية ، واعتقاده هذا يدفعه الى قطع صلاته الحميمة والتخلي عن كل ما هو خاص به . ولكن الحقيقة أنه كلما ازداد بعدا ازداد احساسه بأن العادات والتقاليد الاجنبية تضيق عليه الخناق بصورة مطردة ، واقتنع بالتالي أن السعادة الانسانية لا تشكلها الحياة الطليقة ، وانما تشكلها الحياة المقيدة بقيود مناسبة ، وهذه لا توجد الا في الارض التي ولد فيها وبين الناس الذين تعلم لغتهم .

ان الفتوحات الفرنسية الجديدة في افريقيا ، التي بسطت أمام عدد من المغامرين الالمان آمالا عريضة ، قد حملتني أنا الآخر على مغادرة وطني في شهر أبرايل سنة 1831 للمرة الثانية والابحار الى الجزائر مع الفرقة الألمانية الفرنسية .

كنت قد ذهبت لمقابلة قائد ميتس ، فنصحني بالعدول عن ذلك ولاكتفاء بالسفر الى فرنسا من أقصر طريق للعمل بها . ولكن بصيرتي كانت عمياء ، الى درجة أنني رفضت عرضا تقدم به الي ، وهو أن يحملني رسالة الى صديق له في باريس ، كان عقيدا في الجيش . وتوجهت في الحين الى بارلودوق لا تقدم الى مقر الفرقة الاجنبية . وهناك وجدت عددا كبيرا من المتطوعين الالمان ، ولكنهم كانوا يعيشون في وضع سيء ، بحيث اني ترددت كثيرا في

الامر ، وفكرت في تغيير راي وفي العودة الى وطني لارتمني بين احضانه طالبا منه العفو والمغفرة  
وباليتني فعلت ذلك ! كنت عندئذ اوفر على نفسي تجربة مريرة .

أستقبلت بفرح بالغ ، وسكنت في منزل أحد المواطنين نظرا لانعدام وجود ثكنة . وكنا  
نعاني في البداية من قلة اللباس . ولم تكن الاسلحة متوفرة في المستودع . ولذلك قمنا  
بتدريباتنا مشيا على الاقدام وتحت امرة القيادة الفرنسية . وعندما تكونت لدينا المهارة  
اللازمة . أحضرت لنا ذات يوم بضع مئات من الهراوي لتتدرب عليها نظرا لعدم توفر  
البنادق . فأثارت هذه الاهانة تدمرا كبيرا بيننا نحن الألمان ، وفجأة أنطلقت تلك الهراوي  
من أيدينا في جميع اتجاهات ميدان التدريب . فثار قائد الكتيبة بسبب ذلك ، واستنجد  
بالحرس الوطني لارغامنا على الخضوع والطاعة . ولكننا أعلننا بأننا سنرد على العنف بالعنف ،  
فلم يوافق قائد الحرس على تلك الطريقة ، وهكذا تخلصنا من هذه الآلات التدريبية  
المهينة ، وسلمت اليها بعد حين بنادق حقيقية تدربنا عليها .

وفي شهر جويلية وصلت الى بارلودوق كتيبة أخرى من المتطوعين ، ولكي نتخلى لها  
عن الميدان توجهنا . وكان عددنا ثمانمائة رجل . الى نانسي . ومنها انتقلنا . بعد اقامة  
دامت خمسة عشر يوما . الى جنوب فرنسا . لنركب السفينة من طولون . وسرعان ما أبعدتنا رياح  
شديدة ، ولكنها مواتية عن شواطئ أوروبا . وكانت سفينتنا تسير بصورة جيدة وقد حرص قائد  
الكتيبة ، وهو بروفساني يدعى سالومو ، كان يحب كتيبته كثيرا ، على أن تكون السفرة  
مريحة قدر الامكان . حتى لاتفقد مهابتها بوجود عدد كبير من المرضى . ومع ذلك فقد  
أصيب زملائي كلهم ، باستثنائي انا وعدد قليل ، بدوار البحر . واذا كنت لم أستفد شيئا من سفرتي  
السابقة ، فقد استفدت من هذه السفرة ، وذلك بتناول حصص الزملاء من الخمر . وفي اليوم  
الثالث داهمتنا عاصفة ، هزت سفينتنا بشدة ، ولكنها لم تعق سيرها ، ولم تلحق أضرارا بها  
واستغرقت سفرتنا بعد ذلك سبعة أيام . أشدت خلالها المرض على رفقائي . وقبل وصولنا بيوم  
واحد شهدنا في السماء قمم الاطلس الشامخة ، وفي صبيحة اليوم الثاني تراءت لنا التلال المحيطة  
بالجزائر وأخيرا شاهدنا المدينة نفسها ببيوتها المسطحة البيضاء على الطريقة الشرقية ، وكانت  
تبدو على البعد شبيهة بجبل أجرد .

ودخلنا الميناء ببطء . ويقع على يسار المدينة بالنسبة للداخل . وهو واسع جدا . الا أن  
موقعه المكشوف وقلة امتداده داخل الارض لا يوفر للسفن الاستقرار والامان . ولم نجد في  
الحصون المحيطة به سوى عدد قليل من المدافع الموجهة نحو المدينة . أما مدافع الحصون

الباقية فقد سلبت بعد احتلال الجزائر وأرسلت الى فرنسا . وحوالي الواحدة بعد الظهر غادرنا السفينة ، وصعدنا تحت أنغام الطبول الى القصبة حيث يوجد قصر الداوي ، وقد سقط في الطريق عدد منا مغمى عليه وذلك بسبب شدة الحرارة وأكثر من ذلك بسبب التعب الناتج عن الصعود ، ولم نصل نحن البقية الى المكان المحدد الا بشق الانفس ، وابتهجنا عندما وصلنا أخيرا الى قصرنا المؤقت ، وهو مسجد قديم فيما بدأ لي نعمنا فيه بالراحة !

وفي اليوم التالي تجولت عبر شوارع المدينة ، فوجدت كل شيء في حالة يرثى لها ، فالبيوت منخفضة ، تأخذ فيها الثقوب الهوائية محل النوافذ . ولم تكن هناك بناية جميلة على الاطلاق ، باستثناء ترسانة صغيرة في القسم الاسفل من المدينة وقصر القصبة . وكانت الشوارع غير مستوية ومبلطة بصورة رديئة وضيقة جدا بحيث لا تكاد تتسع لعربة واحدة كان هناك شارع واحد معبد الى حد ما ، يفضى الى باب الواد . ولمدينة الجزائر اربعة ابواب ، بابان في الناحية البحرية وآخران في الناحية البرية ، ويحرسها الحصنان المذكوران آنفا والقصبة ، وتشكل حدودها الخارجية أرض كثيرة التلال شبيهة بالهلال ، تمتد في الشمال في جانبي الجزائر على ساحل البحر . وتتسع في الجنوب ، وتنتهي فيه على بعد 6 ساعات من المدينة . ومنظر هذه التلال بهيج جدا ، والاراضي شديدة الخصوبة ، وتحتوي على العديد من البساتين والبيوت الريفية ، التي يسكنها أبناء الطبقة الراقية في الجزائر أيام الصيف ، وقد استولى عليها الفرنسيون الآن بعد فرار أهلها . وهناك ضياع وزعت مع بيوتها على المعمرين الفرنسيين والأتان . وخلف هذه التلال يمتد بشكل هلالى أيضا سهل متيجة الجميل ، الذي يبلغ طوله 730 ساعة وعرضه أربع أو سبع ساعات . تحيط به جبال الاطلس . وتشقه عدة انهار صغيرة ، من بينها وادي ماء الزعفران في الغرب ، والحراش في الشرق على حدود التلال ، وتكون هذه الانهار عددا من المستنقعات على سفوح التلال ، تجعل الإقامة بها خطيرة جدا . ولم يكن الجزء الذي أستولى عليه الفرنسيون من هذا السهل يقدم أثناء وجودي هناك غير التبن لأطعام الخيل . أما في الامكنة المتاخمة لجبال الاطلس فقد شاهدت فيها عددا من الاراضي المزروعة والحدائق المشجرة ، كما شهدت قرى طينية متناثرة هنا وهناك .

وفي اليوم الثالث من وصولنا أنتقلت كتيبتنا الى بناية كبيرة ، وهي منزل مصطفى باي ، لا تبعد كثيرا عن المدينة ، لتقيم بها ولا شك أنها كانت سابقا بناية جميلة ، فقد كانت تحتوي على عدد من الغرف الكبيرة زينت جدرانها بحجارة مربعة ذات رسوم ، ولكنها أصبحت اليوم مبعثرة ، وقد تهدمت الآن الى حد كبير . فقد نبتت الاعشاب في الامكنة الثلاثة التي

تحتل وسطها ، كما نمت الحشائش الضاربة في الحديقة الكبيرة بين اشجار التفاح .  
والكمثري ، والبرتقال والليمون والتين والرمان والخروب .

كانت الطرق في حالة سيئة ، لا تساعد على السير . ولذلك أنحسر عملنا . الذي استمر  
عدة شهور ، في بداية الامر في تجفيف الارض ، وبناء الطرق . واقامة التحصينات ، وكنا  
نعاني كثيرا من الحرارة والمناخ الجنوبي ، وكان هذا يعني طبعاً المارة وخيبة الامل بالنسبة لمن  
كان ينتظر أن يعيش أياماً سعيدة . وعندما تقدمت أعمالنا فيما بعد نقل مقرنا الى حوش القنطرة  
قرب الحراش . وكانت المستنقعات في هذه المنطقة أكثر عمقا . نظرا لما فيها من السواقي  
العديدة وكان المناخ خطرا . وكان علينا هنا أيضا أن نجفف الارض لنجعل المنطقة صالحة  
للسكن . وحوش القنطرة بناية كبيرة مربعة ، كانت محط رحال قوافل القبائل والعرب ، كانت  
تكون في بدء اقامتي بالجزائر حدود الفتوحات الشرقية ، لا يتعداها أحد دون أن يعرض نفسه  
للخطر ، لان الحصون الفرنسية لم تكن قد بنيت قريبا بعد . كنا نقيم اذن أمام العدو مباشرة ،  
وهو ما جعلنا نعيش في البداية في حذر شديد حتى لا يهاجمنا العرب ونحن دون حراسة ومرت  
شهور ، لم نر خلالها بدويا واحدا . وهكذا تحول انتظارنا لمجابهتهم تدريجيا الى اطمئنان ،  
فاعتقدنا أنه لا خطر علينا اطلاقا . ثم اتضح لنا مقدار هذا الخطأ الذي ارتكبناه يوم 2 أبريل  
1832 م ، ذلك اليوم الذي حكم علي فيه أن أتعذب لمدة طويلة .

ذهبت مع أربعة من رفاقي الى أقرب غابة لجلب الحطب ، وكان ثلاثة منهم مزودين  
بالبلط لقطع الخشب . أما أنا ورفيق آخر فكنا نحمل حبلا لربط الاخشاب في رزم .  
فتزلنا الهضبة ، وعبرنا جسر الحراش الجميل الذي كانت تزينه نقوش عربية ودخلنا غابة من  
أشجار الدفلى وشجيرات الفستق كانت تزداد كثافة كلما تقدمنا فيها . لم نكن نتصور أن  
مكروها ما يمكن أن يحدث لنا . وشجعنا على ذلك أننا لم نكن مسلحين اطلاقا . كما  
لو أننا كنا أمام عدو لا يسمح له نبهه بالاعتداء على أناس عزل . وهكذا توغلنا في الغابة ، لأن  
الاخشاب التي قطعناها كانت خضراء ومبلولة . وكنا نأمل أن نعثر على أخشاب جافة . وقد  
عثرنا عليها بالفعل . وعندما تأهبنا لجمع ما قطعناه سمعت فجأة وقع أقدام الخيل . وما  
أن التفت حتى رأيت عددا من القلنسوات الحمر . يتنسم أصحابها في شماتة من بين  
الغصون القريبة منا . كان الاعراب قد نزلوا عن ظهور خيولهم وجلسوا فوق الأرض . ومع  
أن ذلك لم يكن مفاجأة سارة بالنسبة إلينا . اذ عرفنا أن نمورا تقيم حولنا ، فقد واصلنا عملنا .  
الا أن عددهم لم يبق قليلا . حيث بلغ في رمشة عين ثلاثين رجلا . وعندئذ شعرنا بالخوف .  
إذ لم يعد ثمة مجال للشك في انهم يريدون الشربنا ، وأن علينا في الوقت نفسه أن نفكر في



انقاذ أنفسنا . وفي تلك اللحظة نفسها أحاطوا بنا . فاندفع منهم قسم نحو رفقائي . واندفع القسم الآخر نحوي وكانوا مسلحين بالسيوف والمسدسات . وكنت عاجزا عن الدفاع عن نفسي . ولذلك فقد طرحوني أرضا . ونزعوا عني ثيابي ومزقوها . ثم قيدوا يدي ورجلي وأركبوني فوق بغل . تلك اذن كنت فائدة الحبال التي حملتها معي ! ومن يدري ماذا كان يحدث لي لو أنهم وجدوا لدي بلطة !

)

## الفصل الثاني

عمل العيد - بن زعمون ، الرئيس الأول ، وسيد علي بن عيسى الرابط الأول  
بالنسبة للقبايل

حملت عبر متيجة إلى الجبال ، وقد أفقدني الفزع احساسي ووعيي ، وكل ما لا حفظته في تلك الحالة أن الجبال كانت عالية جدا . فكثير ما كان علينا أن نصعد ساعة لكي نصل الى قمة الجبل . وكانت الغابات التي تغطيها كلها تقريبا تتكون من أشجار الدفلى ونباتات العرعر ، وبين السلسلة الجبلية كان يوجد في كل منها وهدة ضيقة خصبة مزروعة . غير ان سكان الاطلس لا يقيمون في هذه الوهاد فقط ، وانما يبنون بيوتهم أيضا في الهوى ليحموها من هجمات الأعداء ومن الماء في الشتاء . ويسكن الاتراك والعرب القسم الجنوبي من الأطلس ، وتسكن قبيلة حجوط في غربه ، والقبايل في شرقه . وكلما توغلنا في داخل البلاد كان عدد السكان يزداد ، بحيث اني كنت أشاهد في أغلب الأحيان قرية من الخيام بعد كل ألف خطوة ، وكانت الوهاد تزداد اتساعا ، يبلغ عرضها في بعض الأحيان ثلاث أو أربع ساعات ، وطولها 8 أو 10 ساعات ، كما كانت الاراضي تزداد خصوبة وتكثر بها مراعي الماشية .

في حوالي الساعة العاشرة ليلا على وجه التقريب رايتني على حين غرة محاطا بعدد كثير من النيران ، وأنزلت في الحين عن ظهر البغل بقوة ووضعت بين جمع من الفلاحين يزيد عددهم عن مائتين . فجلست هناك أنتظر في خوف المصير الذي سيحدده لي هؤلاء القادة ، وكنت ، بناء على الاحداث السابقة التي رويت لي ، متيقنا من نهايتي . وانتزعني من كآبتي فجأة صوت سمعته . اذ أقربت منا مجموعة من البدو . فاعتراني إثر ذلك فزع ورهيب ، حيث لاحظت ، بمجرد أن رفعت رأسي ، رؤوس ثلاثة من رفقائي . ورأيت الرابع ، كان

لا يزال على قيد الحياة ، ولكن الدماء كانت تغطي جسده ، لقد كان نفس الشخص الذي لم يكن يحمل بطاقة مثلي ، ويدعي بيرنهارد تسابه ، وأصله من مدينة لاندאו. وأجلسه القائد قربي ، ولكنه وقع الى الورا في اغماء ، وكان عاجزا عن الاجابة حين حاولت أن أتحدث معه . فخشيت على حياته لحظة من الزمن . ثم تمنيت له الموت . وذلك عندما دحرج اولئك القساة الرؤوس الثلاثة امام اقدامنا واجتمعوا للتشاور في مسألة اتخاذ قرار بشأننا ، حسب ما فهمته من حركاتهم ، لأن الموت سينقذه من أيديهم ، وكنت أنا نفسي مستعدا أن أموت بدله . واستمر اجتماعهم مدة طويلة ، وقهرني التعب ، فغلبني النوم في الهواء الطلق رغم ماكنت أشعر به من خوف . ولا أذكر أنني رأيت في حلمي أبدا ما رأيته في تلك الليلة المشؤومة ، كان خيالي المهتاج يريني تارة رأسي فوق رأس خنجر ، ويريني اياه تارة أخرى في أيدي البدو ، يلعبون به كما لعبوا برؤوس رفقائي ، وقد حلت أجسادنا محل الأوتاد .

وفي أثناء ذلك كانت ضحكات القساة ترتفع عالية ، فكنت أرى جسدي يخطو في غمرة القهقهات الحادة نحورأسه الذي يتدحرج نحوه ، ثم استيقظت وأنا أصرخ .

كان الظلام سائدا ، والهدوء شاملا حولي ، ولم يبق سوى اربعة حراس . وكان رفيقي لا يزال نائما ، وحينما أستيقظ مع طلوع النهار ، كان قد استعاد وعيه الكامل وسره جدا أن يجدني على قيد الحياة . واستبشرنا جدا عندما قدما لنا قليلا من الخبز والماء . وما كدنا ننعم بذلك حتى عاد الينا البدو الآخرون وفكوا القيود من أرجلنا دون أن يحرروا أيدينا ، واستمرت بعد ذلك رحلتنا في الجبال بحراسة اثني عشر رجلا .

وقطعنا أثناء ذلك اليوم مسافة عشرة ساعات ، ونحن عراة حفاة ، معرضون لحرارة الشمس المرهقة وللعديد من لسعات الذباب والحشرات الأخرى ، وكنا نعاني فوق ذلك من حدة الضربات وسوء المعاملة . وهذا مع تجمد أعضائنا بسبب المسافة التي قطعناها في اليوم السابق . وفي الساعة السادسة مساء توقفنا أمام منزل أحد المرابطين ، فالتف حولنا الناس وأخذوا يغطون بكلمات لم نفهمها في ذلك الحين . وبعد أن أرضوا فضولهم ، نزعنا عنا قيودنا وحملنا الى بيت قريب يشبه المغارة . كانت الرحلة الطويلة قد أتعبتنا كثيرا جدا ، فجلسنا فوق الارض وأخذنا نضمد أقدامنا .

وبعد قليل جاء رب البيت ، وهو رجل سمين ، ضخم الجثة ، يحمل سبحة في يده ، فتأملنا بدقة ، ثم أمر بأن يحضر لنا قليل من الخبز واللبن . وعقب هذا جلس مع مرافقينا



ودفع لهم مقدارا من المال لا أدري مبلغه . كل ما لاحظناه هو أن بيعنا قد تم ، وحين فكرنا في حياة العبودية المؤبدة التي كنا مقبلين عليها . بعيدين عن الوطن والاحياء أعترتنا الرهبة والثورة . لقد بدأ لنا في تلك اللحظة أن من يعيش أجيرا . بل شحاذا في وطنه . ينعم بسعادة يحسد عليها وكنت على استعداد لدفع الكثير ثمننا لعودتي الى أدغال أمريكا الجنوبية ، حيث لم أفقد الأمل في الحصول على غابة صغيرة وبناء مستقبل محتمل .

وبينما رجع مرافقونا من حيث أتوا ، قام بحراستنا أناس آخرون . وفي صبيحة اليوم التالي اخذنا سيدنا بمرافقة الحراس الى خارج القرية وأرانا بثرا . بدىء العمل فيه . وكان لابد من اتمامه . وشرعنا في العمل في الحين ، وكان العمل مرهقا للغاية بسبب التربة الحجرية . ولم نتناول في أثناء ذلك غير خبز الشعير بالماء . وكان علينا أن نتلقى الدفعات والاهانات من كل جانب . الا أن سبابهم لم يكن مؤذيا . لاننا لم نكن نفهم لغتهم . وقد جلبت انتباهنا بصورة خاصة كلمات عربية معنية ، كانوا يرددونها في اليوم الواحد أكثر من مائة مرة . فما من عربي أو بدوي التقى بنا أو آنا نعمل إلا وطلب منا قائلا : شهدوا ! ولم يكن في استطاعتنا أن نرد عليه ، ولذلك كان يقول لنا : قولوا : لا اله الا الله محمد رسول الله .

وهذه هي الصيغة التي يعبرون بها ، فيما يدولي ، عن ايمانهم بالله وبرسالة محمد (ص) (1) . وقد سألب فيما بعد مرابطا في قسنطينة عن معنى هذه الكلمات ، فأجابني بأن معناها لا يدركه غير الله ، وفي ذلك دليل على مدى ابتعاد لغة هؤلاء القوم عن اللغة العربية ، التي من المرجح أن هذه الصيغة قد ألفت بها (2) .

وحين طلبوا منا أن نردد هذه الكلمات فعلنا ذلك عدة مرات ومع ذلك لم يرضوا عنا ، لاننا كنا ننطلق بكلمة ( قولوا ) مع الشهادة بصورة مستمرة ، فكان جزاؤنا الضرب والشتم ، بالإضافة الى انواع الاهانات الاخرى .

وقضينا أياما عديدة في حفر البثر ، ولكننا لم نعثر على الماء وعندئذ تبينا لسيدنا أننا لا نصلح لهذا العمل ، واقتنع بأنه لا يستطيع أن يستفيد منا في شيء ، فغاب عنا ذات يوم وباعنا لرجل آخر . وفي اليوم التالي حملنا تحت الحراسة المشددة الى سيدنا الجديد . وكان الطريق الذي سلكناه يمر بعدد من الجبال والوهاد ، ودخلنا في اليوم الثاني سهلا كبيرا ، عرضه 3 أو 4 ساعات ، ثم اتجهنا نحو اليسار فجأة . وواصلنا السير في السهل مدة ست ساعات . عدنا بعدها الى الجبال ووصلنا خلال بضع ساعات أخرى الى مكاننا المحدد .

كان يقيم في هذا المكان شيخ القبائل والعرب ابن زعمود الشهير المرهوب الجانب ،  
الذي سمعنا بأعماله ونحن في مدينة الجزائر . وكان استقباله لنا . رغم ما كان يدو عليه من  
صرامة وقسوة . ألطف من استقبال سيدنا السابق لنا الى حد ما . وسألنا في الحين باللغة  
الفرنسية عما اذا كنا فرنسيين أو من أبناء أمة أخرى . وحين أخبرناه بأننا ألمان ، أنبسطت  
أسارير وجهه كثيرا . وأدخلنا خيمته وأزال عنا القيود وطلب منا الجلوس . ثم أمر خادما أسود  
فأحضر لنا قطعة من الخبز الابيض وشيئا من الحليب ومنحنا اجازة لمدة ثلاثة أيام . لان  
السفر كان قد أنهك قوانا وسبب لنا مرضا : وفي صبيحة اليوم الرابع قادنا الى القرية وأمرنا  
بإقامة سور حجري حول بستان واسع . واستغرق منا هذا العمل ثلاثة أسابيع كاملة . وقبل  
أن ننتهي من ذلك أستبطأ الأمر ، وتصور أن في استطاعته أن يكسب منا أكثر ان هو التجأ  
الى صفقة جديدة . فقد دعانا اليه ذات يوم وأخبرنا بأنه يريد أن يرسلنا الى صديق له . يود  
أن يتعرف علينا بصفتنا مسيحيين . فكان علينا اذن أن نقوم من جديد برحلة شاقة استغرقت  
ثلاثة أيام .

لأشك أن كثيرا من قرائي يودون أن أقدم لهم ، قبل أن نودع ابن زعمون . بعض  
التفاصيل عن هذا الرجل الذي لعب دورا تاريخيا جديرا بالاعتبار لذلك أروي ها هنا كل  
ما عرفته عنه . ابن زعمون رجل متوسط القامة ، يتراوح عمره بين الخمسين والستين ، بيضاوي  
الوجه ، ذونظرة حادة . ولحية سوداء يشوبها بياض . ومظهره في منزله . بصفته عربيا . في  
منتهى البساطة ، فهو يرتدي سروالا تركيا رفيعا وحائكا وبرنسا . أما في ميدان المعركة فيرتدي  
سروالا أحمر . وصديريا أحمر أو أخضر . وشاحا أحمر بحزام مذهب ، علق به مسدسان  
فضيان وجعبة صغيرة للذخيرة . ويلتصع الى يساره يطغان فضي مقوس . ويضع على رأسه  
عددا من القلنسوات ، يحيط بها خيط أو عمامة حمراء ، وفوقها مظلة قشية واسعة الحافة ،  
تحميه من الشمس . وفي بعض الاحيان قبة من ريش النعام تشبه القبعات الفردية التي  
يحملها الجنود المتخصصون في حفر الخنادق . كان يسكن مع نسائه منزلين جميلين ،  
يعلو كلا منهما سقف منحدر على الطريقة الأوربية . ولكنهما يحتويان على طابق واحد  
وغرف بسيطة . تغطي أرضها حصائر . فوقها زرابي حمراء .

كان ابن زعمون يعيش حياته على نسق واحد . ينهض قبل الساعة الثالثة صباحا .  
يؤدي الصلاة ، ثم يعتني بماشيته ، وخاصة بجياده الجميلة ، ومن بينها جواد أشهب ،  
كان أحبها إلى نفسه وأعزها وأغلاها لديه ، فقد أنقذ حياته ، حين طارده قناصة افريقيا

خلال معركة قرب مدينة الجزائر وكادوا أن يأسروه ، ولكن الجواد انطلق به بسرعة ولم يتوقف رغم الجرح الذي أصابه في عنقه إلا بعد أن وصل بسيده إلى الجبل . وحوالي السادسة صباحا يتبعنا أنا وزميلي إلى البستان ، ليشرف على أعمالنا ويتحدث معنا عن أوربا وعن نظمها السياسية ، ومعاهدها العلمية ، ومشاريعها الزراعية وغيرها . وكان يحدثنا بدوره عن كل ما يجد في الجزائر ، ولم يكن فقط يعرف مقر الوحدات الفرنسية معرفة دقيقة وكذلك عدد الجنود الذين وصلوا ورحلوا ، والذين أصابهم المرض وماتوا وإنما كان يعرف أيضا أدق أسرار السياسة الفرنسية . وعندما أخبرناه بأن صورته معلقة أمام مدينة الجزائر وأن الحكومة الفرنسية قد خصّصت جائزة بعشرين ألف فرنك لمن يأتيها به ، ضحك وقال : - أعرف هذا تمام المعرفة ، ولكن لماذا لا يرسل إلى الجنرال المال بنفسه ، لو فعل ذلك لسلمت نفسي في الحال !

وقال مرة أخرى :

- ان الفرنسيين يبحثون منذ سنوات عن محمد من الذهب الخالص . ولكنهم لم يجدوا له أثرا ، ولا أحد في هذه البلاد يعرف أين دفن ، باستثناء أنا فقط ، وأنا لن أخونه أبدا .

والواقع أنني لم اندهش لمعرفة للأسرار الفرنسية ، فلم تكن تمر ساعة واحدة دون أن يصل إليه جواسيس فوق الجياد أو مشيا على الأقدام ، ليقدموا له أخبارا شفوية أو مكتوبة من الجزائر وبجاية . ويتناول طعام الفطور في حوالي العاشرة ، ولكنه لا يتناوله بمفرده أبدا ، إذ كان يزوره عدد كبير من العرب والقبائل ، يقضون عنده أغلب ساعات النهار . وكان مدار الحديث ، بناء على ما يتسم به الكلام من حدة . في منتهى الأهمية . وقد يحدث أحيانا أن يأتيه زائر . فيركب جواده وينصرف معه . ويتغيب عن منزله الرّيفي لعدة أيام .

وكان صديق ابن زعمون ، الذي حملنا إليه عبر جبال تزداد وعورة على الدوام هو مرابط القبائل المشهور أيضا سيدي علي بن عيسى ، الذي تحظى بركته بسمعة كبيرة في الجزائر كلها . ويسكن سفح جرجرة . قمة الأطلس الشامخة التي تنافس جبال الالب في العلو . وهذا الجبل تغطي نصفه الادغال ، أما النصف الآخر الممتد نحو الشرق فتغطيه الثلوج التي تترك آثارها في المنحدرات فيما بعد . وينحدر في الجنوب والجنوب الغربي انحدارا وعرا ، ويرتبط من الناحية الشرقية بسلسلة من الجبال تنخفض عنه بوضع مائات من الأقدام . وفي استطاعة ضياد الوعول أن يصطاد فيه كمية كبيرة منها . وفي شمال جرجرة يمتد من الغرب إلى الشمال منخفض جميل خصب ، تغطي غابات الزيتون مساحة كبيرة منه ، ويشقه جدول

صاف ، تدبر مياهه عدد من الطواحين . وفي زاوية هذا المنخفض تقع دار علي بن عيسى ، وهي  
بناية عادية مربعة ، يحيط بها رحبة وسور تقابلها قبة التي يؤدي فيها صلاته مع أتباعه ومريديه .

وعند وصولنا التف بنا جمع غفير من الناس ، واقتربوا منا في صخب وبهجة ، ولو لم  
يصدر الولي إشارة من سبخته ، تراجعوا بعدها في هدوء وراحوا ينتظرون نهاية المشهد عن بعد ،  
لكان من الممكن أن يرحمونا بالحجارة . وادخلنا الولي إلى دهليز قرابته وأمر بأن يقدم لنا  
قليل من الخبز والزيت لنسترد قوانا . وكان منظر هذا الشيخ التقى الجليل قد ترك في نفوسنا  
منذ أول وهلة أثرا بالغا ، وأحيا أملنا في النجاة بعد أن يثسنا منها . وكانت أوضاعنا بالفعل  
حسنة للغاية . فلم يطلب منا القيام بعمل مرهق . بل كان علينا فقط أن نحرس البقر يوما  
بعد آخر ، ونقدم العلف في المساء للجياد والبغال ونجلب الحطب الى المطبخ . وكل ما كان  
يزعجنا هو محاولة الشيخ حملنا على اعتناق الدين الإسلامي ، إذ كان علينا أن نحضر بعد  
الانتهاء من العمل الاجتماعات المسائية التي كان يعقدها أمام مسجده مع جيرانه (وكان  
من بينهم عدد كبير من اليهود . وهم يسكنون قرية كاملة غير بعيدة) ويتحدث معهم حول  
المسائل التجارية والاقتصادية . والممتلكات والمؤسسات الفرنسية . ولم نكن أنا ورفيقي في  
الشفاء نفهم من ذلك شيئا لأن العرب والقبائل يتكلمون فيما بينهم بسرعة كبيرة ، وتخرج  
الحروف الساكنة كالشخير من حلقهم !

كان الشيخ يستقبلنا وحدنا في ساعات محددة من النهار . وعلمنا النطق بالشهادة  
بصورة صحيحة وقراءة الفاتحة وترديدها بعده . وكان من الصعب علينا أن نحفظها لأننا لم نكن  
نفهم منها شيئا . لذلك أخذت حبرا وريشة وكتبتها بالحروف الالمانية فحفظناها خلال ساعة  
من الزمن . وذهبنا الى سيدنا ورددناها أمامه كالبيغاء فاندھش لذلك كثيرا . وانتشر خبرنا في  
المنطقة كلها ، وصار منذ ذلك الحين يمنحنا مودته الحميمة ويقدم لنا طعاما أجود . ثم علمنا  
فيما بعد الصيغ اللازمة للوضوء واداء الصلاة نفسها . ولم تبق لنا الا عملية رئيسية ، يتميز بها  
أعلان الاسلام الرسمي ، وهي عملية الختان ، وهو ما لم نقبل به بأي شكل من الاشكال .  
وحين سألنا عن ذلك لأول مرة أجابنا جوابا ملتويا دون أن نرفض صراحة ، فأعلن عندئذ أنه  
لا يريد على أية حال ارغامنا عليه . لأن تعاليم دينه لا تسمح له بذلك . غير أنه يأسف لكونه  
لا يستطيع أن يحتفظ بنا في منزله إن نحن استمررنا في رفضنا . ومر على إقامتنا هناك شهر ونصف  
وقطعنا شوطا حسنا في تعلم اللغة العربية . (الا أننا لم نكن قد وصلنا بعد في فهمنا لروعة الاسلام  
الى درجة ، تحملنا على التخلي عن تعاليم المسيحية المقدسة . وعندما نقد صبره ، أخبرنا



والدموع في عينيه ، أنه لا يجوز له ، مادامنا لا نرغب في الدخول في الاسلام ، أن يأوينا في منزله بصفتنا مسيحيين لمدة اطول ، ولم يبق له الا ان يضعنا تحت تصرف باي قسطنطينية . الذي قد يأمر بقطع رؤوسنا . ولكن هذا التهديد لم يحل بيننا وبين الثبات على موقفنا ، وفضلنا انتظار ما سيحدث لنا في قسطنطينية . فتقبل الشيخ الجليل ردنا برحابة صدر وبتسامح كبير ، فلم يسخط علينا ، بل أرسلنا في الحين الى قسطنطينية تحت الحراسة .

كان سيدي علي بن عيسى في ذلك الحين عجوزا تجاوز الستين من عمره ، وهو قصير القامة ذووجه طويل مستدير . ولحية رمادية بيضاء . ومظهر مهيب . وكان لباسه يشتمل على سروال أبيض أو قندورة بيضاء مصنوعة من القطن . وحائك تتخلله خيوط حريرية . وبرنس . وقلما كان يحمل عمامة ، ويرتدى عادة عصاة بيضاء صوفية أو شاشية حمراء ، يغطيها الحائك . وكان له أربع نساء ، ويعيش مع أسرته الكبيرة في سلام ووثام . ويزوده رعاياه بالفواكه والماشية مجانا رغم ثرائه . ولم يكن يهتم بالتدابير المنزلية ، وانما كان يكل أمر المحافظة على مساكنه وقطعانه ، وجمع الاجور . والشؤون المنزلية والتجارية لصهره سيدي محمد . الذي كان هو الآخر محاربا قديرا . وكان سيدي علي بن عيسى يذهب الى الاسواق كلها ، ليقوم بدور الحكم في جميع القضايا التجارية . وكانت لكلماته قوة غير عادية فما من كلمة تخرج من فمه الا ويعتبرها اتباعه كلمة مقدسة . ولم يكن يشارك في المعارك . ولكن الآلاف كانت تلى امره وتندفع في حماس الى أرض المعركة .

وأثناء اقامتي عنده دعى الناس ذات يوم وعلى حين غرة لمهاجمة الفرنسيين في مدينة بجاية ، فشاهدت أنهم ، في سبيل ابصال الدعوة الى بقية المكان . لم يكونوا في حاجة الى استعمال الطنبور واللجوة الى دقائق الطبول . فقد وصل رسول يحمل رسالة الى سيدنا ، اخبر فيها بموعد تحرك القوات المحاربة ، وفي الساعة الثامنة صباحا حين كان الهدوء شاملا والناس مستغولين بأعمالهم ، اصدرأوامره بالسير للبعض منهم ، وخلال دقيقتين كان هؤلاء قد تقلدوا أسلحتهم ، وامتطوا جيادهم ، واندفعوا في سرعة البرق نحو أعلى قمة الجبل ، وراحوا يصرخون بصوت عال جدا ، سمع على مسافة ساعتين ، وقد فهم الناس عن بعد معنى تلك الصرخة ، فصعدوا بدورهم فوق الجبل ، ليرددوا الصرخة نفسها ، فتلقفها آخرون ووصلوها بدورهم الى من يليهم . ولم يكد يمضي نصف ساعة حتى امتلأت المنطقة بالمحاربين ما بين راكبين وراجلين وتحركت جموعهم في الحال ، يتقدمها أعيان المنطقة ، ولم تعد الا بعد ثلاثة أيام دون أن تحقق هدفا فيما بدا لي ، إذ أنني لم أشاهد أسرى ولا غنائم ، الا أن ما لاحظته من كلامهم كان يدل على أن أمرا جليلا قد حدث .



## الفصل الثالث

### السفر إلى قسنطينة - المضر - صفر الخزانة - قسوة كرجلي

لقد أظهر لي عمل ابن عيسى الأخير ، وكان عملا يتنافى مع طبيعته ، الاسلام في ضوء اسطع بكثير مما فعلته كل التعاليم التي أراد أن يطبعها في أذهاننا ، ذلك أن قسوة أهالي المنطقة ، وما هم بشعب سافل عادة ، ثم قسوة وليهم ، لا يمكن أن أعيدها الا الى تأثير دينهم الذي يأمرهم بمطاردتنا ومحاولة ابادتنا . ولكن ما هو نوع المصير الذي ينتظرنا ، ان نحن وقعنا في يد شعب ، تزيد طبيعته من فظاعة تعصبه ؟ لقد حدثنا الأهالي عن شعب ، من هذا النوع ، فذكروا لنا حب سكان الشرق الجزائري للسلب والنهب ، وكنا نمر بمنطقتهم ونحن في طريقنا الى قسنطينة .

وسرنا في جبال القبائل سبعة أيام كاملة ، وفي اليوم الثامن قطعنا آخر جبل ، وهو الحد الفاصل بينهم وبين الحضر ، كان سيدي علي بن عيسى قد أهدى برنسا وقندورة لنا عند الوداع ، لأن عرينا قد أثار عاطفة الشفقة في قلبه الانساني ، ولكن ما أن سلمنا مرافقونا الى الحضر ، وقطعنا معهم مسافة حتى أخذ هؤلاء يعاملوننا معاملة سيئة للغاية ، فنزعوا عنا ثيابنا كلها تقريبا ، وهم يدفعوننا طورا ويضربوننا طورا آخر . كنا في شهر جوان ، وكانت شمس نوميديا تحرق رؤوسنا وأعناقنا العارية ، وكان الذباب الخبيث ، الذي كنا قد تعرفنا عليه سابقا ، يتجمع في السهل بكثرة ، ويعذبنا بلسعته الحادة . ومما زاد في آلامنا أننا لم نلح على امتداد بصرنا شجرا أو دغلا ، يوفر لنا لبضع دقائق قليلا من الظل ، وحين أتصور الآن ذلك العذاب يصعب علي أن أدرك كيف تحمله جسمي النحيل : كنت أحس بالحرق فوقي وتحتي ، كأني في جحيم . وكان دمي يغلي ، وفي أذني دوي ، ورأسي يلتهب ، وكانت قدماي تدميان ، بينما كان

جسمي الأعلى يشكل بطاقة نموذجية للساعات والأورام . ومع ذلك فإن هذه الآلام لم تكن شيئاً بالنسبة للآلام النفسية والخوف من أن نعذب حتى الموت في قسنطينة ، فقد كان مرافقونا يحاولون أن يصوروا لنا ذلك في تشف عن طريق الكلمات والحركات . ولم تكن تلك الآلام شيئاً أيضاً بالنسبة للاهانات والشتائم التي كانت تصب علينا من كل جهة . فقد كان الشعب يتجمع حولنا كلما مررنا بقرية من القرى فيهتف أحدهم :

— نصارى ، ومن الفرنسيين ! اقطعوا رؤوسهم ! اذبحوهم !

ويهجمون علينا بكل ما تصل إليه أيديهم من هراوي ، ومناجل وخناجر وسيوف ليقتضوا علينا ، ولم ننج منهم الا بفضل جشع حراسنا الذين كانوا يأملون في الحصول على مكافأة مالية كبيرة من الباي نظير تسليمنا إليه . وكان تصور هؤلاء الناس لهيئة مسيحي ، يدل على ما وصلوا إليه من قسوة ووحشية ، فعندها توقفنا للاستراحة في إحدى القرى ، تكرموا علينا بالبحث عنا أولاً بين جياد حراسنا وبغالهم ، ولما لم يجدونا هناك صرخوا :

— اين الكفار ؟

وحين جاءهم الجواب بأننا تبعنا عربة النقل لأننا كنا مربوطين إليها ، وهجموا علينا بأسلحتهم . اني لا أكاد أجد كلمات اعبر بها عن مشاعري نحو هذه الحوادث وأمثالها . ويروى أن تعساء وقعوا في شباك بعض الأشرار فعلقوهم من أرجلهم ، وضربوهم بالسياط الى أن أصابهم السحر وخرج من أفواههم لعاب استعملوه بمثابة السم القاتل . وكان هذا وضعي تقريباً خلال الرحلة كلها . .

عندما تركنا القرية المذكورة ، حرص مرافقونا على تجنب بقية القرى ، حتى لا يضيع منهم الثمن المأمول ان نحن قتلنا ، وهكذا تنعمنا بالهدوء يوماً كاملاً الا ان وضعيتنا كانت في اليوم التالي أسوأ وأكثر رعباً . فقد حتمت علينا وعورة المنطقة أن نسلك طريقاً ، يمر بخمس أو ست قرى ، وما كاد السكان يسمعون بمرور أسرى مسيحيين حتى خرجت النسوة ، وهن نصف عرايا ، من جميع الاكواخ ، وهجمن علينا بالمناجل والخناجر . ومن حسن حظنا أن أزواجهن لم يكونوا في البيت ، فقد كانوا يحصدون القمح في مكان بعيد عن مساكنهم . فإذا كانت النساء ، اللواتي يوصفن عادة بأنهن أكثر حناناً من الرجال ، في هذه الدرجة من القسوة فكيف سيكون أزواجهن اذن ؟ لقد كن يطالبن برؤوسنا في غضب شديد وإذا هن لم يمكن من ذلك فانهن سيهاجمن الحراس . وعندئذ صعب على الحراس أن يجدوا مخرجاً مما كانوا فيه ولم يبق لهم في النهاية الا أن يعلنوا أننا تخلينا عن ديننا . ولكن هذه الحيلة لم تنطل عليهن



مع أنها كانت مناسبة لما في طبيعتهم من حياء وحشمة ، فقد هدأت الضجة لحظة ، وسرت بينهم همهمة ، ثم صرخت إحداهن بصوت عال :

— مسلمان ؟ طيب . اذا كانا كذلك فهما مطهران ، سوف نتأكد من ذلك في العبن !  
وصاحب هذه الكلمات أصوات الاستحسان ، وارتفت الخناجر والمناجل - وعقب ذلك مشهد ، أسدل فوقه ستارا حتى لا يعتبريني الخجل أمام ذوي الاخلاق الحميدة أيضا !  
ونشأ عن خيبة الأمل غضب لا حد له . ورحن يطالبن في الحاح برؤوسنا أو برؤوس حراسنا . وسددن الطريق في وجوههم ، بينما أسرع بعضهن ، فيما ذكرن . لاحضار رجالهن . وبعد بضع دقائق رأيناهن يعدن ، ومعهن . عوض رجالهن . ما يزيد عن ثلاثة آلاف امرأة . وكان حراسنا عاجزين طبعاً عن مقاومتهم ، ولم ينقذنا في النهاية من هذا الموقف الحرج الا القائد الذي خشي غضب الباي ، فرآى أن من واجبه أن يمكننا من المرور بسلام . وكانت شتائم أولئك النسوة ولعناتهن تصل الى اسماعنا عبر مسافة كبيرة .

يجدر بي أن أروي طريقة أخرى ، وقعت لنا في سهل سطيف في الجنوب الشرقي من مدينة زمورة ، حين قضينا ليلتنا في قرية هناك . فقد قادنا الفلاحون الى أطلال مجاورة يطلقون عليها اسم سلطان سطيف ، وكانت تتكون من حائط قديم مربع . يبلغ ارتفاعه حوالي 30 قدماً ، وبرج منفصل عنه يتراوح علوه بين عشرين وثلاثين قدماً . وكان بهذا البرج عدد من الحجارة المربعة ، تتضمن نقوشاً لاتينية ، أصبح من المتعذر قراءتها . وقد ادعى الفلاحون أن هناك ، في الجانب الخارجي من السور . مكاناً ، فوقه صفيحة يمكن رفعها عن الأرض كما يرفع الغطاء ، يوجد به كثر لا يستطيع رفعه مسلم ، وإنما يستطيع رفعه مسيحي ، وسوف يسمح له المسيحيون الذين دفنوا هنا قديماً باكتشافه وامتلاكه . ولذلك حملوا معهم معاول وآلات أخرى وأمرونا بالحفر في المكان المحدد مدة طويلة . ولما لم نجد شيئاً اتهمونا بأننا لم نرد اخبارهم بوجود الكثر ، وأن كفرنا هو السبب في ذلك !

وترأت لنا أخيراً صخور قسنطينة ، وكان لابد أن نصل في آخر المطاف الى المدينة ، فقد كنا على وشك الانهيار ، ولكننا لم نعرف الراحة حتى بعد وصولنا الى هدفنا . وكلما اقتربنا من المدينة ازداد احساسنا بالآلام التي تنتظرنا ، وكان الخوف والكآبة قد تمكننا منا الى درجة أننا كنا عاجزين عن الجواب ، عندما التقينا بجندي (كرغلي من حرس الباي) وسألنا من نكون . ولما أعاد سؤاله أجبتنا في همهمة بأننا فرنسيان . وما كدنا ننطق بذلك حتى سبل سيفه ليقتلنا ، وقال للحراس الذين اعترضوا على تصرفه بصوت جاف مضحك :

- اتركوهما معي ! يمكنكم أن توفروا على أنفسكم مشقة الطريق ، فسوف أسلم الرأسين

بنفسي الى الباي .

وهكذا مسك زميلي دون تردد ، وقد شجعه على ذلك خوف الحضر من الاتراك وأقربائهم الكراغلة ، وطرحه أرضا ، وأمر الفلاحين بوضع أنشودة حول عنقي في أثناء ذلك ، وهو ما حدث في الحين . وحين هم بذبحه بواسطة يطغانه ، ارتفع صوت طالبا منه أن يترث قليلا . واقترب رجل فوق حصانه ، يرتدي لباسا أبيض ، وخاطب الجندي باللغة التركية ، فاطلق سراحنا بعدها وحملنا الى المدينة .

## الفصل الرابع

الاستقبال في قسطنطينة الباشمبا علي بن عيسى - عين سحرية - نفاؤل  
الحاج أحمد - الاستنطاق والحكم

هل كانت الشفقة هي التي حملت العربي على انقاذنا أم أن واجبه هو الذي دفعه الى منع الجندي من الاعتداء على حقوق سيده ؟ اني لم استطع معرفة ذلك ابدا ، إلا انه من المؤكد ان العناية الالهية كان لها دخل في ذلك ، اذ سبق لها أن انقذتنا من أبلغ الاخطار .

لقد كان من المنتظر أن نتعرض لنفس الخطر لدى أية خطوة نخطوها ، ومن ثم أشار ذلك الرجل على حراسنا بأن يخبروا الباشمبا ، أو حاكم قسطنطينة العسكري ، بوصولنا قبل الدخول الى المدينة . فلم يتجاسر هذا على أن يتركنا تحت رحمة غضب الشعب وأرسل أربعين جنديا لمرافقتنا الى قصره فواصلنا سيرنا ، وكان علينا أن نصعد في الجانب الذي دخلنا منه المدينة جبلا عاليا الى حد ما ، ولكن ذلك لم يمنع الأهالي من الأسراع الى سفح الجبل لملاقاة . واذا استثنينا صراخهم الرهيب ، فان موكبنا قد وصل باب المدينة بسلام . وهناك أخذنا الجنود بينهم ، لأنهم كانوا يدركون ما يتطلب ايصالنا الى الحاكم أحياء من جهد ومشقة . وكانوا قد ربطوا يدي كل منا الى يدي الآخر ، فسرنا عبر الزحام مثل ضحيتين لا تدريان الى أين تحملان ولا ما سيحدث لهما ، وكان غضب القسطنطينيين مريعا ، فأصبحت المدينة كلها في حالة تأهب ، وتعالى الصياح في جميع الشوارع :

— نصارى ، فرنسيس !

وتقاطرت الآلاف وأخذت تصيح :

— اقطعوا رؤوسهم ، أحرقوهم ! سلموهم إلينا !

ودافع عنا الجنود معرضين حياتهم للخطر ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بدافع انساني ، انما فعلوه تنفيذا لأوامر الباشمبا الاستبدادية . فكانوا يضربون الجموع بسيوفهم ذات اليمين وذات

الشمال ، في الوقت التي كانت هي تحاول أن تنتقم منا ومنهم بواسطة رمينا بالحجارة . ولم تتوقف عن مطاردتنا إلى أن وصلنا إلى مركز الحرس الرئيسي ، وقد ألحقت بنا جروح وأورام .

وقفنا بعد ذلك أمام الباشحمبا ، علي بن عيسى وهو قبائلي ، يتراوح عمره بين 58 و 60 ، له وجه طويل ولحية خفيفة بيضاء . وبعد أن امر الحرس بتهدئة الجموع ، راح يتأملنا لمدة طويلة ، ثم أرسلنا مع حرس جديد وزنجي ، كان طوال الطرق يهتف بعبارات لم تكن مفهومة بالنسبة لنا ، إلى سجننا .

واستقبلنا مكان قدر مظلم ، لا يدخله النور ولا الهواء ، وقفل علينا الباب في الحين . وجلسنا في الظلام من العاشرة صباحا إلى الخامسة مساء ، ولم يخطر ببال أحد منهم أن يقدم لنا قليلا من الخبز ولم يفتح الباب في النهاية إلا لأرضاء فضول الناس ، الذين ألحوا على قائد الدار (ويدعى أيضا مولى البلاد ، لأنه هو الذي يفصل في جميع القضايا المدنية) الحاج محمود . فلم يستطع أخيرا إلا أن يخضع لرغبتهم والحاحهم . وبما أن ضيق السجن لم يتسع لجمعهم ، فقد تقدموا واحدا بعد الآخر إلى فتحة الباب لينظروا إلينا . وكان الداخلون والخارجون يتقدمون ويتسابقون في ضجر ليتمكنوا من رؤيتنا ، وكأننا حيوانات عجيبة ، لا يشبهها إلا ما يجده المرء في السوق السنوية الألمانية ، ولو أن الجندي الحارس كان يطلب من كل شخص مبلغا من المال لكان التشبيه دقيقا . ولم يكن لنا ، نحن الإثنين موضوع هذه المسرحية ، مزاج يسمح لنا طبعاً باستحضار مثل هذا التشبيه . كنا نحس حيال هذا المشهد بشقاء لا حد له .

لقد نجونا حقاً من سوء المعاملات الجسدية ، غير أن اللعنات كانت تصب علينا بمثابة التحيّة من طرف المتقدمين نحونا ، وحين تصدر عنا دهشة ، يغمرونا بسيل من الشتائم ، ويبصقون في وجوهنا عند الذهاب ، واستمر ذلك أربع ساعات ، الأمر الذي أثار سخطنا . وقدم لنا الطعام في الساعة التاسعة ليلاً ، فالتهمنا الخبز الأسود والماء كالحيوان الجائع . وقضينا ثمانية أيام في هذا السجن ، طعامنا الخبز والماء ، ورغم أننا كنا مرضى ، فإننا لم يقدم لنا أي لباس ، نستربه عرينا ، وكان فراشنا الحجرة الصلبة .

كان الحاكم قد أخبر الباي في أثناء ذلك بوصولنا ، فأرسلنا إلى المعسكر بناء على الأمر الذي تلقاه منه ، فوصلنا إليه بعد ثلاثة أيام وشاهدنا في الطريق بغلاً كثيرة ، لم يكن على ظهرها سوى 254 رأساً ، أرسلت إلى قسنطينة ليشاهدها الناس . وعلى بعد مائة متر من ذلك وجدنا أيضاً عدداً من الجثث ، كان علينا أن نمر فوقها ، وكان بعضها لم يتعفن بعد ، أما بعضها الآخر فافترسته بنات آوى . ولا شك أن الباي قد وضع ذلك في طريقنا عمداً ، واعترف أنه قد حقق هدفه من ناحية الأثر الذي أراد أن يحدثه في نفوسنا .

كان خبر وصولنا قد سبقنا إلى المعسكر وأثار موجة من الفرح ، فاستقبلتنا الجموع صائحة :

الموت للكفار !

ورافقتنا تلك الجموع حتى موقع خيمة الطاغية ، وأمرنا بالجلوس فوق الأرض على بعد 20 مترا من الخيمة ، وقد وقف إلى جانب الباب 24 مملوكا ، وهم في الواقع كراغلة ، تجري في عروقهم الدماء التركية والعربية ، وسيفان (وللسيف منزلة سامية عند هؤلاء القساة) وكان خلفنا عدد لا يحصى من الجنود والفلاحين ، الذين عبروا عن ضجرهم بإثارة الضجة والصخب . وظهر الباي أخيرا ، وفجأة عم صمت كصمت الموتى . وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن التحقيق الذي أجراه معنا يدولي أنه من المناسب أن أقطع القصة هنا لأحدث القاريء عن نسب الباي ، وشخصيته ومظهره .

هو أحمد بن محمد ، وكان أبوه قد خنق بأمر من داي الجزائر بسبب قسوته ، وجده أحمد ، باي قسنطينة السابق ، من الكراغلة . وقد هربت به أمه وهورضيع إلى الصحراء لتنفذه من مصير أبيه . وكان أخوها ابن قانة شيخ قبيلة عربية عظيمة بالصحراء وبمساعده استطاع أحمد ، الذي نشأ في الصحراء نشأة وحشية ، أن يصل إلى منصب خليفة بقسنطينة ويسترجع كنوز أبيه . وقد نفى عدة مرات بسبب قسوته (منها ذهابه إلى مكة واكتسابه للقب الحاج) ولكنه عرف دائما كيف يستعيد مركزه ويستولي بالتالي على منصب إبراهيم ، باي قسنطينة المعزول . وكلما ازدادت قوته ازدادت معها وحشيته ، وكاد في سنة 1830 أن يذهب ضحية مآمرة دبرها شيوخه ، ولكن حصار الجزائر حال دون اتمامها . وقاوم الفرنسيين في الجزائر مقاومة شديدة ، وخلال تقسيم المدينة ، رجع إلى بايلكه مع حاشية كبيرة وغنائم كثيرة ، وقد علت سمعته وقويت هيئته . وتعرض حكمه مرة أخرى للخطر ، وكان سببه الاتراك ، الذين استخدمهم ، وحين كان وشك التخلي عن منصبه للباي ، الذي اختاره الاتراك ، استطاع بفضل الكراغلة ، الذين بقوا على إخلاصهم له ، أن يكسب مساندة الأهالي ويتغلب على الثوار ، فضرب رأس الباي ، وحل الميليشيا التركية باستثناء حوالي 30 رجلا هذه تقريبا هي الاحداث التي وقعت قبل رحولي إلى قسنطينة .

وأحمد باي رجل متوسط القامة ، ضخم الجثة ، لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد ، نسب ما استنتجته من لحيته ، التي كانت لا تزال سوداء ، في حين أن سكان المدينة تشيب لحاهم وهم في سن الأربعين . إن هذه اللحية التي تصل إلى منتصف صدره ، والعينين الكبيرتين الغائرتين ، والصرامة الحادة تخلع عليه مظهر الطاغية . ولا يحرك ملامحه ليضحك



أبدا ، وحتى حينما يضحك فان دخيلته لا تعرف الامن خلال صوته ، ويتكلم بطلاقة وبصوت واضح جدا ، ويسير ببطء وأبهة ، ولباسه يلتمع بالذهب ، أما رفاقه الذين لا يفارقونه أبدا فهم مسدسان وسيف ذو غمد ذهبي .

كان قد جلس امام الخيمة فوق مخدة حمراء ، فقدم لها مملوك ، قائد الشيوك ، سعوطا حاداً ، كما قدم له القهواجي فنجان قهوة ، وكان عليه أن يذوقها قبل أن يقدمها له . وبعد أن تأملنا لحظات ، دعى ترجمانه ، وهو يهودي يدعى هارون ، وأمره بأن يوجه الينا الأسئلة التالية : كيف ألقى القبض علينا ، وما هي جنسيتنا ، وهل لدينا في أوطاننا آباء وأخوة وزوجة وأطفال ؟ وبعد أن اجبنا على هذه الاسئلة التي وجهت الينا باللغة الفرنسية ، وكان جواب السؤال الأخير بالنفي ، أشار بيده ، فمسكنا الجلاد وقادنا خلف الخيمة وكان الجواب الأخير الذي لم يكن مطابقا للحقيقة ، مبني على نصيحة اسباني عجوز ، عاش في قسنطينة خمسا وأربعين سنة ، وكان قد زارنا في السجن . .

لقد كان علينا أن نتجنب أي جواب ينم عن تعلقنا بوطننا ، اذا كان يهمنا أن نبقى على قيد الحياة . كان هذا الرجل الانساني قد أسر مع والديه قرب مدينة الجزائر ، وبعد أن أعدم الداي والديه بيع هو عبدا ونقل الى قسنطينة . فقضى الشقي هنا عدة سنوات في العبودية ، فلما رأى أنه من المستحيل عليه أن يستعيد حريته مرة أخرى اعتنق الاسلام ، ولكن ذلك لم يحفظه من العيش في ظروف مؤلمة .

كان الجميع مبتهجين لتنفيذ حكم الاعدام فينا ، ولكن الباي تردد بعد اصدار الحكم علينا لا لأن حيلتنا غيرت رأيه في قضية اعدامنا ، وانما لانه اراد أن يتكرم علينا بميته خاصة ، كان عليه أن يفكر فيها ، لذلك قيدت أقدامنا في غصون ذلك ، وطرحنا أرضا في الشمس ، وحتى لا نتأذى من ذلك أمر بان يقدم لنا خبز أسود وان نسقى ماء من القربة . وقضينا ثمان واربعين ساعة ، تخللتها ضربات واهانات مريعة دون أن يتغير وضعنا ، واخبرنا الجلاد بأن الباي سيأمر في اليوم الثالث باعدامنا خارج المعسكر . فحمدنا الله وعزينا انفسنا بالأمل في وضع حد لآلامنا . وجاءنا في مساء اليوم التالي مملوك ، وقد ارتسمت علامات الرحمة والعطف على ملامحه ، واخبرنا بلهجة حزينة بأن قرارا قد اتخذ بشأننا ، وهو أن نطرح أمام كلاب الباي تمزقنا ، وكان له كثير من هذه الكلاب . لقد فاقت هذه القسوة كل توقعاتنا . واخرجنا الفزع من هذا الموت الاليم ، فرجونا المملوك رجاء حارا طالبين منه أن يحاول اقناع سيده بقطع رؤوسنا ، فابتعد عنا متأثرا ، ولكنه عاد بعد ساعة ليخبرنا بأن قرار الباي لا رجوع فيه . وعندئذ

استبدبنا اليأس ، فتوجهنا الى الله وطلبنا منه ان يسرع بهذه الميته المريعة ، واضطجعنا فوق  
الارض لننام . ومع ذلك فان مشيئة الله لا يسبر غورها !





## الفصل الخامس

العضو عنا - اثنا عشر ألف رأس - شهيد البسعة - المرض الخطير  
رفقاء الصير - عواقب محاولة الفرار

بعد أن حاولت النوم مدة طويلة عبثا ، لأن الخوف وضجة المعسكر قد طرداه عني ، عاد المملوك في الليل مرة أخرى وحمل الينا خبرا سارا ، وهو أنه استطاع بعد الرجاء وضرب الأمثلة ، وبعد وقوع حادثة معينة ، أن يقنع الباي بالعفو عنا ، وخاصة عندما أخبره بأن هناك اعمالا قدرة جدا ، لا تحتمل التأخير ولا يجوز أن يمارسها المسلمون . وهكذا نقلنا في صبيحة اليوم التالي الى قسنطينة للقيام بهذه الاعمال . فاستطعنا من جديد أن نتنفس بحرية ، وداهمننا النوم في الحين لينسينا لبضع ساعات كل ما خبرناه من بلاء .

وعند الفجر أركبونا فوق بغلين — فقد كان أحمد باي يخشى فرارنا رغم ما كنا نعانیه من ضعف ومرض — وربطوا فخذينا الى بعضهما بعض بواسطة سلسلة . وكنا نسير ببطء ، ولم نتعرض خلال الطريق لاهانة تستحق الذكر ، لان الباي كان قد منع ذلك ، ولكننا تعرضنا في قسنطينة نفسها لاهانات جديدة ، لأن أمر الباي لم يعرف فيها . فعوض ان يتزعوا السلسلة عن ارجلنا وينزلونا عن ظهر البغلين ، أنامونا على ظهورنا فوقهما وركلونا وبصقونا علينا ، الا أن قائد الدار دافع عنا وأخبر الناس بالعفو عنا .

ووضعنا سجينين في غرفة كبيرة مظلمة بقصر الباي القديم ، وكان منظرها مرعبا لما فيها من رطوبة وهوام كثيرة ، وغلق علينا الباب . فتمددنا فوق الارض الباردة ، وقد نهكنا الجوع والضعف . ومكثنا على هذه الحالة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، لم نر خلالها سوى حارس عجوز ، كان يقدم لكل منا كل صباح قطعتين من الخبز ، لا تزيد الواحدة منها على أربعين غراما ، وجرة ماء ، وهويشتمنا وبلغتنا . كان في السابق يشتغل قرصانا في الجزائر . وفي اليوم الرابع حضر عدد من

الحراس ، وذهبوا بنا إلى قائد الدار ، فآخبرنا بأوامر الباي المتعلقة بالعمل الذي كان علينا القيام به .

لم يكن يستر أجسادنا سوى برنس قديم ، ولم يكن لدينا حذاء ولا غطاء للرأس ، كما أننا لم نكن نأمل في الحصول على ذلك . ونقلنا ثمانية حراس ، وهم نوع من الشرطة السرية ، إلى القلعة . وتقاطرت الجماهير نحونا ، ولكنها اكتفت بتوجيه الشتائم إلينا . وكان العمل الذي أمرنا بالقيام به يتمثل في إخلاء بيت كبير من أكداس الجماجم البيضاء ، التي بلغ عددها اثني عشر ألف جمجمة ، وتعود إلى معركة جرت مع باي تونس وبقيت في مكانها ، وكان لابد من دفنها خارج المدينة (11) وقدمت لكل منا قفة ، وبدأنا العمل في الحين . وكان اليوم الأول أسوأ يوم مررنا ، إذ كان علينا أن نقطع مسافة ثلاثة آلاف خطوة قبل الوصول إلى الحفرة ، ومع أن الحراس كانوا يرافقوننا في كل مرة ، فإنه كان من المستحيل علينا تقريبا إيجاد طريق للمرور عبر زحمة الاطفال والفلاحين المتسارعين نحونا ، وذلك ما فرض على قائد الدار أن يقدم لنا حرسا عسكريا زيادة على الحراس الثمانية لئلا يعوقنا الناس عن العمل .

كانت ساعات العمل تستمر من الخامسة صباحا إلى الحادية عشرة ، يقدم لنا أحد الحراس بعدها الوجبة المعتادة المتكونة من الخبز والماء . وبعد أن نستريح ساعة نعود إلى العمل في الثانية عشرة ونستمر فيه إلى السادسة مساء ، ثم نقاد إلى السجن من جديد ، حيث نتناول نصف الخبز الباقي ، لأنه لم يكن يقدم لنا شيء في المساء .

واستمر هذا العمل ، الذي كان يستبدل أحيانا ببعض الاعمال الصغيرة ، من 6 جوبلية إلى 28 اغسطس سنة 1832 . وما كدنا ننتهي منه ، حتى كان في انتظارنا عمل آخر لا يقل عنه بشاعة . كانت قسنطينة في ذلك الحين تستحق عن جدارة اسم ( المذبلة ) الذي أطلقه عليها العرب . فلم تكن الأوساخ قبل مجيئنا تترك في الشوارع فحسب ، وإنما كانت جثث الحيوانات تلقى أيضا في أغلب الأحيان في الأزقة ، فتسبب روائح وبيئة . ولكي ننظف هذه الحظيرة المهيمة ، قدم لنا بغلان بزميلين ، لتحمل فوقهما الأوساخ إلى خارج المدينة ، وما كان في وسع هرقليس أن ينهي عمله حقا بصورة أسرع من انهائنا لعملنا دون مساعدة النهر ، وكان علينا أيضا أن نسرع في ذلك ، لأن الباي كان قد أمر بإزالة الخيام في 10 ديسمبر سنة 1832 وإقامتها على بعد مسافة ساعتين من قسنطينة ليتمكن من دخولها بسرعة . فركب كبار الموظفين وأعيان المواطنين للقائه هناك . وكان عليهم أن ينزلوا عن جيادهم على بعد مائة خطوة ، ونحنوا أمامه وأيديهم معقودة فوق صدورهم ، ثم يقبلوا عمامته اقرارا بالاعتراف به والطاعة له .

وبينما كان الشعب العادي يقبل ظهر يده ويطنها ، كان على اليهودي أن يكتفي بتقبيل يسراه .  
وهذه البيعة لا يؤديها طبعاً أحد من قلبه ، فالخوف هو الذي يفرضها على الناس . فما من  
مرة يقترب فيها الباي من المدينة الا ويحس الجميع بالخوف والهلع ، ولا يجرؤ أحد على مغادرة  
بيته ، فتخلو الشوارع من المارة . وما أن يغادر المدينة حتى تعود البهجة الى النفوس ، والشجاعة  
الى القلوب ، ويخرج الجميع الى الشوارع .

وفي يوم 12 ديسمبر دخل الباي المدينة في الثامنة صباحاً ، وكان يرافقه جوقه الموسيقي  
(ولا تزيد الآلات الموسيقية عن الطبول الكبيرة والزرينات والشبابات) ومماليكه وجنوده ، فحياه  
الشعب بهتافاته ، ورحبت به كذلك سبع طلقات مدفعية . أما نحن فقد هيأت لنا الضجة ،  
التي سببها ازدحام الناس ، أياماً من الراحة ، أتيح لنا خلالها أن نفكر في مصيرنا بصورة  
جدية . كنا قد نجونا من الموت ، ولكن من كان في مقدوره ياترى أن يضمن لنا أن مزاج الداى  
لن يتغير فجأة فيكون في ذلك هلاكنا ؟ وهل يمكن أن يكون لهذه الحياة ، وهي عادة عذبة  
اتخذناها بديلاً للموت — هل يمكن أن يكون لها أي اعتبار ؟ كنا بعيدين عن الوطن وعن  
الأحباء ، بعيدين عن كل ما له علاقة وارتباط بحياتنا . لقد كنا نعيش في بلاد السباع والتمور ،  
وبين أناس يفوقونا قسوة وعنفاً . ولو كنا قد وجدنا أنفسنا مثل روبنسون في جزيرة خالية منعزلة  
وسط البحر ، لكانت العزلة على أية حال أفضل من الاهانة والضرب ، ولكان في امكاننا  
عندئذ أن نعيش تحت سماء الله الفسيحة ، ونبني حياة تناسبنا ولو كانت فقيرة معدمة . أما في  
هذه البلاد فقد حرمتنا من الحرية ، بما فيها الحرية الجسمية ، وأصبحنا آلات في أيدي  
القساة ، ولم يكن لنا أمل في المساواة معهم الا بالتخلي عن ديننا . وكانت محاولة النجاة بالنفس  
مرتبطة بأخطار كثيرة ، فقد وقعت حادثة ، سأرويها فيما بعد ، ولذلك لم نجرؤ على الفرار .  
ولم يبق لنا عندئذ الا الأمل في أن فرنسا قد تستولي على قسنطينة وتحررها من عبوديتنا ، الا أن  
هذا الأمل كان في ذلك الحين لا يزال بعيداً ، ولم تكن لنا قوة جسمية تساعدنا على احتمال تلك  
المتاعب المتواصلة جميعها .

كنا نرى أمامنا مستقبلاً مظلماً تماماً . وعندما كنت أعود بذاكرتي الى الماضي وأتذكر أن  
نزقي وطيشي في أيام شبابي كانا السبب المباشر في هذه التعاسة كلها ، كنت أشعر بالندم وأوجه  
اللوم الى نفسي مما كان يجعلني شقياً الى أبعد الحدود . وقد نتج عن تلك الحالة النفسية ، التي  
كنت أعاني منها ، أن اعتراضي انقباض في صدري وجمود في عقلي . ولم تدر العناية الالهية  
بخلدي وتلتصع فيه كشعاع من الضوء الا بعد وقوع حادث كان سبباً في تحسين اوضاعي ، ومنذ

ذلك الحين بقيت تلك العناية الالهية بالنسبة لي بمثابة نجم يرافقني عبر الشدائد والمحن .

لم تدم راحتنا طويلا ، فقد فتح باب سجننا في صبيحة اليوم الخامس ، وأمرنا بإنشاء قناة خارج المدينة ، عرضها 24 وعمقها 26 قدما وذلك لنقل ماء الآبار الى مكان قرب المدينة ، لان قسنطينة لم تكن بها بئر واحدة . وجاء الشتاء اثناء قيامنا بهذا العمل ، فاستمر هطول الامطار وهبوب الرياح الباردة مدة طويلة ، كما تساقطت الثلوج من حين لآخر وكان هذا الطقس ، الذي لم تكن ثيابنا تحمينا من سورته ، سببا في اصابتنا بمرض ، بدأ بالحمى الباردة ، ثم تحول الى حمى حارة وشروا اخرى ، وكل ذلك لأننا ، رغم مرضنا لم نعف من العمل . وحين عجزنا أخيرا عن الوقوف على أقدامنا ، اعدنا إلى السجن وتركنا تحت رحمة القدر، ولم يقدم لنا الخبر والماء الا بعد رجاء وبكاء طويلين . وهكذا ألزمتنا فراش المرض الحقيير لمدة أربعة أشهر ، عذبتنا خلالها الحشرات دون أن نتلقى اية مساعدة إنسانية . ولما عجز أحدنا عن مديد المساعدة للآخر بسبب الضعف ، نزلت علينا رحمة الله ، فقد فتح باب السجن ودعيت للحضور أمام قائد الدار لاقوم بدور المترجم اثناء استجوابه لأسيرين جديدين .

ومع أني لم أكن أتمنى لألد أعدائي أن يكون في الوضع الذي كنت فيه، فقد فرحت عندما سمعت بأن عددا من الرفقاء سيلتحق بنا . ونهضت عن فراشي قدر استطاعتي ، فقادني حارسان الى قائد الدار . وهناك وجدت شقين فرنسيين ، أسرا قرب عنابة ، وهي مدينة ساحلية تبعد عن قسنطينة بخمسة عشر ميلا ، كانا عاريين مثلنا ، ضعيفين نتيجة سوء المعاملة ، ولكنهما لم يستقبلا في قسنطينة الاستقبال المريح الذي استقبلنا به نحن ، لأن غضب الأهالي كان قد هدا إلى حد ما وعندما ترجمت سؤالي قائد الدار من أي جنس هما وكيف وقعا في الأسر ، وترجمت الجواب عليها من لغة إلى أخرى بصورة جيدة ، نزل من عليائه ونظر إلى لباسي لحظة ، إما لانه أراد أن يشكرني على الخدمة التي أدتها له ، وإما لأنه أحس باني أشاركه في لغته ، وقدم لكل منا حذاء وقميصا وبنسا قديما . وحظينا في هذا اليوم وطوال مدة مرضنا بطعام ساخن ، إذ كان يقدم لنا برغل مطبوخ بالزيت . فأحدثت فينا هذه العناية المفاجئة تغيرا كبيرا واستعدنا صحتنا خلال فترة قصيرة .

وفي أثناء ذلك كان الربيع قد ورد ، وفيه يعود الباي كما جرت عادته إلى المعسكر لأخذ اللزمة . وكان قبل ذلك قد أمر قائد الدار ، الذي كان يشرف علينا ، بأن يحملنا إلى بستان له يقع خارج المدينة لإصلاحه . وبعد سفره بفترة قصيرة أرسلنا مع الفرنسيين ، وقد قيدت أقدامنا مثنى مثنى ، تحت حراسة مشددة إلى مكاننا المعين، وكان يبعد ساعة عن المدينة . وكان عملنا

يتمثل في أول الامر في البحث عن الخشب والقصب لبناء كوخ نقضي فيه لياalina ، فكلفنا ذلك ثلاثة أيام ، لأن القيود كانت تعوق خطانا . وقدمت لنا أربعة معاول لإصلاح البستان ، لم نكد نتمكن من التحكم فيها ، وكان عملنا شاقا. كانت الأرض قبل ذلك مغروسة بأشجار العنب ، ولم يسبق لها أن حرثت ، ولهذا كانت صلبة إلى درجة أننا كنا في حاجة إلى ثماني أو عشر ضربات لنتمكن من حفر مقدار حفنة من التراب .

وانتفخت أيدينا وتلطخت بالدماء بعد فترة قصيرة ، وكانت أذرعنا تعاني من ثقل المعاول ، والحرارة تنهكنا ، فنجلس فوق الأرض ، ولكن القرعات والضربات كانت ترغمنا على الوقوف مرة أخرى وهكذا كنا نعمل من مطلع الشمس إلى مغيبها مدة شهر كامل ، وطعامنا الخبز والماء . ولم يأمر قائد الدار بأن تضاف إلى الخبز الشربة المذكورة سابقا إلا بعد أن انهارت قوانا نتيجة سوء التغذية وبعد أن توقف العمل نهائيا . وبعد ثلاثة أشهر أليمة ، وقبل أن ننهي عملنا ، أرجعونا من جديد إلى المدينة ، لأن أعمالا مستعجلة كانت تتطلب حضورنا .

كان قصر الباي فيما سبق في حالة سيئة ، ولذلك أمر الآن بهدمه شيئا فشيئا ، وإضافة الشوارع المجاورة إليه ، وإقامة بناية تشغل حوالي مساحة هكتار ونصف تقريبا . فكانت هناك أعمال كثيرة يقوم بها الأسرى ، منها حفر الأساس وجلب الأخشاب والحجارة وغيرها . ومر الصيف والخريف أثناء هذا العمل ، وفي أحد الأيام حمل الينا ثلاثة رفقاء آخرين ، أسروا قرب بجاية ، وهي مدينة صغيرة تحت السيطرة الفرنسية ، تقع بين الجزائر وعنابة ، فأمرنا القائد بإجراء تحقيق دقيق معهم : ما هي الأوضاع في فرنسا ؟ وهل سيهاجم الجيش الفرنسي قسنطينة ، ومتى يتم ذلك ؟ وأرسلهم بعد ذلك الينا ، فسرنا وصولهم ، إذخول لنا أن نقوم بعملنا بعدد أكبر من الرجال .

ورجع الباي ، فعاد أثرياء الاهالي ، الذين كانوا حتى تلك اللحظة ، يتنفسون بحرية ، إلى الاختفاء من جديد . كانت المدينة كلها تعيش تحت نير حضوره وكأنها تعيش تحت ضغط جو مرهق ينذر بالبرق والرعد . وانتهى الشتاء أيضا ، وقد رآنا الباي من شرفة قصره عدة مرات أثناء قيامنا بعملنا ، بل كرمنا بالنظر الينا عن قرب ، وسألنا إن كنا حتى ذلك الحين قد قمنا بعملنا بجد ونشاط ، ولكنه لم يفكر في تحسين أوضاعنا .

وفي ربيع السنة التالية 1834 ذهبنا مرة أخرى الى العمل في البستان ، وكان العمل لكثرة الأيدي أحسن منه في السنة الماضية . وتخلّى كذلك مشرفونا عن صرامتهم السابقة إلى حد



كبير ، وازدادت ثقتهم بنا عندما تعلمنا أن نتحدث معهم بلغتهم . وقد استغل أحد رفاقنا هذه الثقة ، فحل القيد من رجله ليلا بواسطة مسمار ، عندما كان الحراس نائمين أمام الباب ، وفتح الجدار القصبي الخلفي ، وفر من السجن ، رغم أن رفيقه في القيد قد أوضح له استحالة نجاته . ولما شرع الحراس عند الفجر في عدنا كما جرت العادة ، افتقدوا واحدا منا ، فأخذوا يصرخون بصوت عال إلى درجة أن فلاحي المنطقة كلها استيقظوا على صراخهم وأقبلوا علينا في مجموعات كبيرة ، وبعد أن استوضحوا الأمر بقي بعضهم لحراستنا بينما ذهب البعض الآخر للبحث عن الهارب ، وانتشرت الضجة على مسافة ثماني ساعات ووصلت جبال القبائل ، وبعث قائد الدار ، الذي كان قد أخبر بالامر في الحين ، بالفرسان إلى جميع الجهات ، ووعد من يعيده إليه بثلاثمائة ريال .

وفي اليوم التالي أعادوا الهارب إلى قسنطينة مقيد اليدين والرجلين تملو عليه آثار الضرب والخدش الشديدين . فكيف أمكنه يا ترى أن يقطع عشرين ميلا في أمان والحال أنه كان بلا زاد ، يطارده المواطنون نهارا وتطارده السباع والتمور ليلا ؟ ولم يدخلوه إلى سجننا ، وإنما وضعوه في سجن أسوأ ، ريثما يتخذ الباي قرارا بشأنه . وبعد ثلاثة أيام وصل الأمر بأن يقطع رأسه ، وفي اليوم التالي حمل في الثامنة صباحا وسط بهجة العامة خارج المدينة حيث قطع رأسه .

وكان لفراره عواقب وخيمة بالنسبة لنا أيضا ، فقد شددت علينا الحراسة وأقيمت حولنا القضبان الحديدية ، وكان علينا أن نتحمل من جديد اهانات كثيرة دون أن يعاقب عليها أحد . ومع ذلك كله فإن العمل في البستان كان أحب شيء إلى ، نفسي ، فنظر حراسنا المعتاد لم يكن أكثر إزعاجا من الوجوه القاسية في المدينة . لقد كنت في البستان أتنفس بحرية أكثر وأشعر بأني قد انتقلت في الوقت نفسه إلى قسم من مدينتي ، حيث قمت ذات يوم ، وأنا ألعب ، بعمل مماثل ، ولذلك كنت أنظر إلى نهاية هذا العمل بحزن ، خاصة وأنه كان من المتوقع أن يحال بيننا ، بعد أن انعدمت الثقة ، وبين العمل خارج المدينة ، لكن الانسان يفكر والله يقدر . لقد كانت عودتي إلى المدينة سببا في انقطاعي عن ممارسة أعمال العبيد بصفة نهائية .



## الفصل السادس

مخلصي من القيد وتعييني في المدفعية - تجربة عربية في رمي القذائف  
دانيال في حب السباع - زيارة قباس باها التركي للباي أحمد

و ذات يوم في شهر نوفمبر — كان الباي قد رجع من المعسكر ، وكنا نحن الأسرى نعمل في إصلاح بئر بالقصر — حضر أحمد باي نفسه برفقة قائد الدار ، لمشاهدة البناء الجديد . فمرا بنا صدفة وشاهدا عملنا ، فسأل الباي قائد الدار عن سلوكنا ، فكان الجواب في صالحنا جميعا ، غير أنه أثنى علي أنا بصورة خاصة ، لأنني تقدمت في تعلم العربية تقدما ملحوظا ، فحدث عندئذ أن توجه إلي الباي فسألني عن أمتي وعما إذا كنت قد أدت الخدمة العسكرية في بلادتي وما هي الأسلحة التي تدربت عليها . وحين أجبته عن السؤال الأخير بآني كنت في « سلاح المدفعية » أشار إلي بالاقتراب منه ، وقدم لي يده ، التي كان علي أن أقبلها من الجهتين ثم أمر أحد الحراس بنزع القيد عني ، والذهاب بي إلى باش طوبجي لتسجيل اسمي في المدفعية . وبعد ساعة أصبحت حرا وبومباشيا للحاج أحمد ، باي قسنطينة .

وقد حملة علي تعييني في هذه الوظيفة دون شك وبالدرجة الاولى اعتقاده بأن مدفعيا أوربيا يستطيع أن يفيدته فائدة كبيرة في حالة ما اذا حوصرت المدينة . ولذلك أراد في اليوم التالي أن يتأكد من مهارتي . حقيقة ، إن معارفي عن طبيعة المدفعية لم تكن ذات أهمية ، ومع ذلك فقد كان من السهل علي أن أتفوق علي فيلق مدفعيته كله . كان الباي قد عين في الصباح ميدانا ، يغطيه الكلس ، ويقع خارج المدينة ، توجه نحوه القذائف من مدفع يزن خمسين رطلا ، وحدد مكافأة مقدارها عشرون ريالاً لمن يوجه أحسن قذيفة نحو الهدف .

وبدأ الاختبار في الثانية عشرة . وكان الباي واقفا مع وزرائه فوق شرفة النصر ، بحيث يستطيع أن يتتبع عملية القذف بشكل دقيق . وكنا نحن فوق القلعة ، ومعنا كاتب يسجل في كل مرة أسماءنا ومدى قرب القذيفة من الهدف أو بعدها عنه .

ونظرا إلى أن كل منا كان يحاول أن ينال الجائزة ، فقد كان الدور الأول لأولئك المدفعين الذين ادعوا أنهم كانوا قد برهنوا على مهارتهم أمام أسوار مدينة الجزائر ، إلا أنه كان لابد من كثير من الصبر حتى يستطيع المرء مشاهدة الطريقة ، التي كانوا يرمون القذائف بها ، إذ أنهم كانوا يحشون المدفع ، وسددونه نحو الهدف ، وكان أولهم قد احتاج إلى أكثر من ساعة لذلك . وعندما أرسل قذيفته ، وقعت على بعد أكثر من خمسمائة خطوة خلف الهدف . وجرى للثاني ما جرى للأول ، فقد انفجرت القذيفة في منتصف الطريق ، لأن الفتيلة كانت قصيرة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبقية ، إذ أنهم كانوا يوجهون القذيفة بعيدا عن اليمين أو يوجهونها نحو الشمال .

ويعود السبب في ذلك إلى طريقة تسديدهم ، فقد كانوا يمسكون بجعبة من أعلاها باليد اليمنى ، ويمسكون الرصاص باليسرى ، لكي يحولوا دون حدوث أية حركة ، ثم يضغطونها في الوسط — وهكذا حاول الجميع أن يوجهوا القذيفة ، وجاءت الساعة السادسة مساء دون أن يكون لأحد منهم الأمل في الحصول على الجائزة . وبقيت أنا وحدي ، إلا أنه لم يكن في استطاعتي ، نظرا لهبوط الظلام ، أن أتبين الهدف بوضوح ، ولذلك طلبت تأجيل العملية إلى اليوم التالي ، غير أن طلبي رفض ، وقيل لي : « إن الباي لم يحدد لرمي القذائف سوى يوم واحد . »

كان علي إذن أن أحشو المدفع ، وكنت قد حددت في فترة ما بعد الظهر الخط المناسب بين طول الفتيلة والعلو والمدة التي يستغرقها الحشو ، إلا أنني كنت أخشى أن أفقد الاتجاه الذي حددته بسبب الظلام . وحشوت المدفع وسددته قدر استطاعتي ، ثم أطلقت النار — كانت طريقة إطلاق النار نفسها غريبة عني . لقد كانت أغلب القذائف صغيرة الحجم ، وتبعاً لذلك كان المدفع واسعا . ومن ثم كانت توضع حول القذيفة تربة ناعمة ، حتى تحول دون اتصال نار الحشو بالفتيلة ، فأصبح من الضروري إدخال الفتيلة باليد اليمنى وإطلاق النار باليسرى .

غادرت قذيفتي المدفع ، فراح الجميع يتطلعون في ترقب إلى المكان الذي ستقع فيه . كان من المستحيل علينا أن نتبعها بأعيننا ، ولكننا سمعناها تنفجر ، ووقعت إلى اليمين على بعد سبعة أقدام من الهدف . ولو أتيحت لي في يوم من الأيام أن أسحب ورقة يانصيب عظيمة أو أحظى بنصيب هام في صندوق الحظ ، فإن فرحتي لن تكون أعظم من الفرحة التي أحسست بها عندما وجهت القذيفة . لقد أبهجنى بهجة لا تقاس إلا بالآمي السابقة ، أبهجنى أن أرى العرب ، الذين عاملوني مدة طويلة معاملة الكلب ، مشدوهين ، يعضون على شفاههم ، ويكتمون غيظهم ، لأن احترامهم لي ، وإعجابهم بي منعهم من إظهاره .

وفي نفس اللحظة حضر المملوك الأول ، ودعاني للمثول بين يدي الباي . وأظهر لي الباي رضاه عني ، وهو يقدم لي يده اليمنى لأقبلها ، وأعطاني الجائزة التي حددت قيمتها بعشرين ريالاً ووعدني بالاهتمام بي أكثر إن أنا أصبحت مسلماً صالحاً ، ولكنني لم أهتم بذلك كثيراً ، لأنه كان قد أصبح من السهل علي البحث عن طريق للخلاص .

ومنذ تلك اللحظة صار من الواجب علي أن احضر إلى القلعة لأقوم ببعض الاعمال فيها . وذات يوم دعيت ، بصورة لم أكن أتوقعها ، للمثول بين يديه ، فالتقيت عنده بتركي عجوز ، يتقلد منصب حارس السباع . وبعد تقديم فروض الطاعة ، خاطبني بالاسم ، الذي أطلقه علي هو نفسه ، وهو عبد الرحمن بن أحمد ، وقال لي :

« عليك ، يا عبد الرحمن ، أن تذهب الآن مع هذا التركي إلى حظيرة الأسود ، وتتعلم منه كيف تطعمها وكيف تعاملها . وخين تتعود على ذلك ، يترك الحارس السابق منصبه لكبر سنه ، وتبقى أنت وحدك معها . »

ولم يفزعني لأول وهلة هذا الأمر الذي أصدره الي عن حسن نية ، فقد كان خوفي من الباي أعظم من خوفي من الحيوانات المفترسة . وهكذا ذهبت مع التركي إلى حظيرة السباع من غير اعتراض ، فوجدت فيها ثمانية أسود ، أعظمها يبلغ طوله ، بعد إسقاط الذيل من الحساب ، سبعة أقدام ، وعلوه أربعة أقدام . وكانت كلها مروضه ، تطيع حارسها ، ولكنها ما رأتنا حتى تكمشت وجوهها بصورة مفزعة ، وتأهبت للوثوب علينا غير أن السلاسل القوية ، التي كانت تلف أعناقها ، وتتصل بحلقات حديدية مثبتة في الحائط ، حالت بينها وبين ذلك ، هذا بالإضافة إلى أن الهراوة الغليظة التي هددها بها العجوز ، سرعان ما أعادتها إلى موضعها المعتاد . ويعدئذ أخذ التركي يوضح لي الطريقة ، التي يجب أن أعامل بها هذه الحيوانات .

كان من الضروري أن تنظف الحظائر في السادسة صباحاً ، وتربط الأسود في الرحبة عندما يكون الجو جميلاً ، وإن يقدم لها الطعام في التاسعة ، وقد خصص لكل واحد منها رأس وأمعاء خروفين ، كما تقدم نفس الوجبة في الثالثة بعد الظهر ، ويقدم لها في الرابعة الماء الذي أعد في اناء خشبي . وعند الظهيرة ينبغي أن تحك ظهورها الواحد بعد الآخر بواسطة خشبة لأن الغبار الذي يستقر فوقها يسبب لها حكة قوية . وتعاد في المساء إلى حظيرتها ، وتشد إلى الحلقات الحديدية . وفيما عدا هذه الاعمال كان هناك عمل مزعج وخطر بالنسبة لي ، كان هناك أسد كبير أصيب بمرض ، تسبب في سقوط شعره ، فكان لابد أن يدهن عدة مرات في اليوم ، بناء

على أمر الباي ، بدواء أشير به عليه ، ويتكون من الليمون والقار والبارود . وكان هذا الدواء في الواقع حارا جدا واكثر ازعاجا للأسد ، لأن ظهره كانت به جروح عدة . ولهذا كان يثور بشكل فظيع بمجرد أن يلمح من بعيد الاناء الذي يحتوي على ذلك الدواء ، ومروقت طويل قبل أن يسمح لي بممارسة هذا العلاج . أما الاعمال الباقية فكنت أقوم بها مع العجوز التركي ، إلا أنه كان علي ، حتى بعد مضي شهر ، أن أتجنب عددا من الوثبات الخطيرة . ولما ترك العجوز ، الذي كان يتحكم في الاسود تحكما كاملا ، منصبه ، أصبحت أبأشر العمل بمفردي :

وأصبح وضعي بعد ذلك خطرا فعلا ، رغم اني اكتسبت ، بذهاب التركي ، مجالا اوسع في معاملة الأسود ، وصار في إمكاني أن أنحرف عن النظام المتبع حرصا على سلامتي . كان من الضروري أن تكون للضرب ، في أغلب الاحيان وبشدة ، قوته التربوية ، وهكذا استطعت بعد حين أن أجعل الاسود ترجع واثبة الى الخلف بمجرد أن أدعوها لذلك ، وكانت تنال طعامها وشرابها بصورة منتظمة ، الا أنني كنت أقدم لها الطعام بواسطة عصا ، لأنها كانت تلوح بمخالبها نحوي عندما أقرب منها . ونظرا إلى أنني كنت أخشى ، حين أخرجها إلى الرحبة ، أن تهاجمني ، فقد اغلقت الأبواب عليها كلها في الحظائر دون أن أدهن المريض منها ، الا أن هذا الاستثناء لم يكن من الممكن أن يستمر طويلا خارج القاعدة . كان لابد أن يتغير بالقوة إذا تعذر علي أن أجد وسيلة ألطف لإثارة طبيعة هذه الحيوانات .

وللوصول إلى ذلك ، جلست عدة أيام قربها ، وأخذت أناادي كلا منها بالاسم الذي أطلقه عليه الباي ، وبالفعل نجحت في أن أجعل بهذه الطريقة لبوة في الخامسة من عمرها نجحت في النهاية في أن أجعلها تتعود علي إلى درجة أنها كانت تقترب مني ، وتنام أمام قدمي ، وتدعني إلى ذلك أحك ظهرها كما كان يفعل الحارس السابق . وبعد أن تأملت الأسود الباقية هذه المعاملة اللطيفة لمدة طويلة ، أصبحت هي الأخرى تأتي ، الواحد بعد الآخر ، لألاطفها ، ولكنها كانت تشب بعيدا وهي تزمجر ، كلما حركت اثناء ملاطفتها جسدي أدنى حركة .

وبهذه الطريقة تعودت علي شيئا فشيئا ، فلم يكن هناك من يعتني بها سواي ، وصار للأسد المريض بدوره يأتي إلي لأدهنه ، وسرعان ما شفي من مرضه ، ولم أعد بعد ذلك أتردد في إخراجها إلى الرحبة وربطها هناك . إلا أنني فشلت في ذلك عدة مرات ، فقد فقدت قيودها عند الخروج وراحت تثبت في الرحبة ، ولم تعد إلي إلا بعد حديث طويل معها وتملق إليها ، فتركتني أربطها في مكانها .



كانت توجد فوق الفناء غرفة صغيرة ، ذات طاقة تحل محل النافذة ، وكنت أسكنها ، وأقضي فيها ، في الساعات التي لا تكون فيها الأسود في حاجة الي ، اليوم كله لا عمل لي فيه إلا الانشغال بأفكاري . كان الباي قد أحالني بصورة ما على التقاعد ، سواء كان ذلك منه لانه أراد أن يرني عملا من اعمال الخير الاسلامية الصحيحة أو أنه أراد أن يمنحني الراحة الضرورية للقيام بأعمال أهم . فلو أنه كان يعلم أنني لم استغل هذه الراحة إلا لأحافظ في داخلي على حيوية الذكريات الجميلة ، التي كانت تربطني ، بوطني ، وللتفكير في الطرق التي تساعدني على استعادة حريتي ، لسلك معي مسلكا أقل محافظة علي . ان احساسني بالشفاء قد جعل أوقات فراغي مريحة ، وحين بدأت أحس بفراغ داخلي معين ، كنت أود من كل قلبي أن املاؤه بالقراءة أو التأملات العلمية ، ولكم ندمت على أنني لم أمكن نفسي في أيام شبابي من التفكير في الاشياء المجردة بصورة مستقلة ، غير أنني وجدت في الوقت المناسب ما اشغل به نفسي اليوم كله . فقد سلم إلي شبلان ونمر في حجم قطعة صغيرة للسهر على تربيتهم ، وهو عمل مفيد بقدر ما هو مسل . لم يكونوا بعد قد تعودوا على الأكل ، فكانوا ، فكانوا ، ثلاثتهم ، يتغذون بالحليب ، ولم تقدم لهم الكبد المثلومة إلا فيما بعد ، فكانوا لا يتناولونها إلا من يدي . كنت أسلك معهم سلوك المعلم مع تلامذته ، أعني أنني لم أضعهم في الحين مع الكبار المروضين ، وانما كنت أقدم لهم دروسا خصوصية في غرفتي . فكانوا ينامون طليقين في النافذة ، أو بالاحرى في الطاقة اليوم كله ، وهم ينظرون الى الاسود الكبيرة المدربة ، التي كانت تنتبه بواسطة صراخ الصغار ، فترمزجرهي الاخرى معبرة عن مشاركتها لهم وعطفها عليهم .

ولكن هذه الغريزة الحيوانية أوقعتني ذات يوم في موقع حرج للغاية ، فقد أوقظت من نومي في احدى الليالي ، فسمعت صوتا قبالي في المكان الذي ينام فيه الشبلان ، فناديتهما عدة مرات ، ولكنني لم أتلق جوابا . فاستغربت ذلك ونهضت ، وأشعلت النور — ويالها من دهشة ! كانت لبوءة عجوز قد فكت قيدها ، وقد جذبها صراخ الشبلين ، ودفعت الباب ، الذي كانت تسنده من الداخل خشبة فقط ، ودخلت غرفتي ونامت قرب الشبلين . وافزعتهما بحركتي فهرت ولكنها عوضت أن تأخذ الدرج ، وثبت الى الخارج من نافذة في الطابق الثاني .

كان من الخطر البالغ أن أتركها تدور طليقة في الليل ، فقد كانت هناك شجرة توت وسط الفناء ، يمكن أن تتسلقها ، وتأخذ طريقها فوق حظيرة الحيوانات ، ثم فوق السقوف وتتجه إلى المدينة . فاخذت المصباح ونزلت إلى الاسفل وربطتها ، وقد لاحظت أثناء ذلك أن الانسان ، إن هو أخذ اثناء الليل مصباحا يستطيع أن يعامل هذه الحيوانات بصورة أقل خطرا بكثير من معاملته لها بالنهار .

وبعد هذه الحادثة بمدة جاء تركي ، أطلق عليه العامة اسم قوباش باشا ، 13 . لزيارة الباي أحمد ، فكانت هذه الزيارة سببا في صدور أمر لي بالمضي إلى القصر مع الشبلين ليشاهدتهما الضيف ، فأخذت كلا منها تحت ذراعي ، وذهبت الى الباي ، فوجدته جالسا قرب الرسول فوق اريكة ، ولاحظت في الحين ان الشبلين لم يكن لهما وحدهما شرف الفوز باعجاب السادة الكبار فقط ، وانما كنت أنا أيضا الطرفة الثالثة ، التي اراد الباي أن يتسلى بها ويسلي ضيفه ، فبعد أن قبلت يديهما ، أخذ أحمد باي يحدثه عن اصلي ، فانطلق التركي ، وكان اعرف بالالوضاع الاروبية من أحمد باي ، يحدثه ، بعد اللقاء بعض الاسئلة علي ، عن الخصائص التي اتمتع بها بصفتي بروسيا ، فتقبلها الباي بسرور . وحين لم تعد بهما حاجة إلي ، كان علي الشبلين أن يقدموا بعد ذلك فنيهما .

كان علي أن أتركهما بجريان ، فكان الصغيران يثبان في الغرفة ويصرخان ويطاردان بعضهما بعضا ويلعبان ويستفز أحدهما الآخر ، ومزقا أثناء ذلك عددا من المخدات الحريرية المبعثرة في الغرفة . فاردت مسكهما ولكن الباي وجد متعة كبيرة في ذلك ، وأمرني أن أتركهما يلعبان ويعبثان ، وأخيرا حل محل هذا المشهد شيء أعظم . كان علي أن أعيد الشبلين وأقود ، بعد لحظات ، اسدا أكبر الى مسكن الباشا : فاخترت لذلك أكبر الأسود ، وهو في العاشرة من عمره ، وكان أحبها الي ، وكان يطيعني طاعة تامة . فأخذته من السلسلة ، ففسح لنا الحارس الطريق ، داعيا الناس الى الابتعاد ، فخطونا أنا ورفيقي ، في وئام تام ، عبر الشوارع دون توقف ، فيما عدا أنه جلس عدة مرات ونظر حوله وزار وعند وصولنا الى مسكن الباشا ، قيدت الأسد إلى عمود مرمر . وظل هادئا مضطجعا أمام قدمي طوال وجودي قرب ، ولكني ماكدت أبتعد عنه ، حتى راح يزأر بشكل رهيب الى درجة أن الباي وضيفه ، اللذين كانا نائمين في قسم آخر من القصر ، قد استيقظا من النوم ، وأقبلا مسرعين لمشاهدة الاسد .

وبعد أن ابتلع الطعام الذي قدمته له ، أمرني الباي أن أريه إلى أي حد وصلت في ترويضه والألفة معه . فوثبت معه عدة مرات حول العمود ، ثم غلقت باب الفناء وأطلقته . وبدأنا في الحين نشب ، أحدهما خلف الآخر ، وقبل أن ألتفت ، وثب بأماميتي فوق ظهري وأوقعني أرضا ، وعرضني ، بعد أن فتح فمه إلى آخره ، في قفائي فصدرت عن المشاهدين كلهم صرخة فزع ، وفزعنا أنا الآخر ، وبقي في هذا الوضع عدة ثوان ثم وثب بعيدا من جديد دون أن يأذيني . فرضي السيدان عني رضا كبيرا ، وصرفاني بعد أن قدما لي 30 ريالاً هدية .

ولم يكن رجوعي موفقا مثلما كان مجبىء - ذلك أني كدت أترك الفناء مع تلميذي ، حتى شاهد في أسفل الطريق فلاحا يركب بغلا ، فاسقطني أرضا بوثة قوية ، وهرب بعيدا عني في طرفة عين . فوثب الفلاح من فوق البغل ، ودخل بيتا قريبا منه لينجوب نفسه ، وأسقط الأسد ، الذي كان خلفه ، البغل أرضا ، دون أن يجرحه ، وانطلق عبر بعض الشوارع . واتجه بالتالي الى الباب ، وخرج الى الخلاء فأسرع كل من كانوا في الشارع الى منازلهم بأقصى ما يستطيعون ، ولكن الاسد قتل خارج المدينة حمارا ، وقتل بعد ذلك بقليل بقرة ، وبقي جاثما فوقها .

أخبر الباي بذلك في الحين ، فلم يأمر بقتله ، وإنما طلب مني أن أعيده الى الحظيرة ان أمكنني ذلك . فأسرعت إلى الخارج دون تردد ، وناديته باسمه عدة مرات ، وبقيت بعيدا عنه ، لأنه كان يجيئي بالزمجرة . وبعد إغراء مكرر جاء إلي أخيرا ، وقد شبع ، فتركني أقيده وسار خلفي طائعا ، كالحمل ، حتى الحظيرة . وعندما ذهبت إلى الباي مرة أخرى وأخبرته بذلك أجابني بابتسامة ، كانت تعني ، فيما بدالي ، لكم كنت قريبا من الموت لو أن مسلما واحدا فقد حياته الغالية بسببك !

واذا ضربت صفحا عن هذه الأخطار ، التي تعرضت للكثير منها ، فإن الأيام التي عشتها بين الأسود تعتبر أيام آحاد وأعياد حقيقية بالنسبة لباقي الايام التي قضيتها في قسنطينة . فقد كنت أشعر في حظيرة حيواناتي كأني قد نقلت من ميدان التزوات الانسانية الى وضع طبيعي يعتني فيه الانسان باقامة علاقة أكثر هدوء مع حيوانات الغاب ، فيجمعها حوله ، ويطلق عليها الالقاب ، ويخضعها كالخالق لطاعته . وشعرت ألي قد ارتفعت عن درجة الحيوانات ، التي كنت قد دفعت اليها بصفتي عبدا قبل فترة ، وأستعدت كرامتي الانسانية ثانية ، كما رجع الي ايماني ، الذي كدت أفقده ، تدريجيا ، ايماني بأن للانسان قيمة لا ينبغي أن يسئ اليها أحد ، لاسيما وانها تحتم حتى على الحيوانات المتوحشة أن تنكر ذاتها وتعترف بالجميل .

لشدهما كان يسرني ويبهجني ، حين أكون جالسا بين تلاميذي ، وهو ما كان يحدث لي في أغلب الأ . ان ارى الطبيعة بكل ما لها من جلال تلتهم أمامي من خلال عيونهم وحركاتهم . عندما كنت أرى النمر يلعب مع الأسد والصغار يلعبون مع الكبار لعبا بريئا ، وأستطيع أن أحمّد ثورة هذه الحيوانات بكلمة واحدة وبمنظرة واحدة إذا حدث أن عرضت نفسي سهوا للخطر ، كنت حينئذ أتذكر الأخطار التي نجوت منها ، وأتلو هذه الكلمات في كآبة :



من الخطر أن توقظ الأسد ،  
ومرعب هو النمر المكشّر عن أنيابه ،  
إلا أن أخطر ما يواجهنا ،  
هو الإنسان في جنونه .  
ومن المؤسف حقاً أنه كان علي أن أشعر بحقيقة هذه الكلمات بعد فترة قصيرة بعمق  
أكثر .

## الفصل السابع

ادعاء تركي - حملة ضد المدينة وعناية - امثلة أخرى عن القسوة  
أحمد باشا وأحمد بومزراو ، باي قسطنطينة - انتون غيهارد  
الماينسي الجمرات المتهبة ، خرافة .

أثار السفير ، الذي تحدث عنه سابقا ، اهتماما كبيرا في قسطنطينة كان عند وصوله يرتدي  
برنسا حريريا أحمر وقلنسوة كبيرة حمراء بدون عمامة . وكان يبدو فخورا جدا بالشارة التي تزين  
صدره ، فعندما أراد أحمد باي أن يقبله عند استقباله كما جرت العادة ، قال وهو يشير الى  
شارته : هذه هي الجديرة بالاحترام لأنا ... ولعله كان يريد بهذه الكلمات ان يذكر الباي بأنه  
مرتبط بالسلطان الأعظم ، الذي قطع منافسه الأمير عبد القادر علاقته به . وقد حمل لباسه ،  
المتكون من رداء طويل ومعطف ازرق وجزمة عالية أهالى قسطنطينة ، وكان قد وزع عليهم عند  
دخوله المدينة قطعا نقدية تركية تقربا اليهم ، حملهم على اتهامه فيما بعد ، فكان أحدهم يقول  
للآخر سرا ، انه ليس تركيا ، وانما هو مسيحي وجاسوس للفرنسيين ، ولكن أحمد باي كان  
مقتنعا بعكس ذلك ، والا فانه ما كان ليبالغ في احترامه الى هذا الحد ، ويخلع عليه عند سفره  
خلعا هامة . وقد ذكر بعد ذلك أنه أرسل بنية تشجيع الباي ورعاياه على مقاومة الفرنسيين والتأكيد  
على حماية الأتراك لهم عند الضرورة واخبرهم بأن جيشا تركيا سينزل قرب تونس خلال ثلاثة  
أشهر ، ويتوجه قسم منه الى قسطنطينة لمهاجمة الفرنسيين براً مع أحمد باي ، بينما يتوجه القسم  
الآخر الى عناية لمحاو رة .

وبعد سفره بثلاثة أشهر ، وكان قد أقام عندنا عشرة أيام ، وصل تركي آخر عن طريق  
طرابلس حاملا أوامر من قبطان باشا ، وحمل هو الآخر تأكيدات شفوية وكتابية تتعلق بالمساعدة  
التركية ، وأخذ هدايا كثيرة وسافر ثانية ، ولست أدري كيف استطاع أحمد باي أن يثق  
بالأتراك ، مع أن وعودهم كانت مجرد كذب من أولها إلى آخرها .

وفي ربيع سنة 1836 م خرج أحمد باي في المدينة ، وكان خروجه في هذه المرة للقيام بحملة مهمة . واخذ معه عددا من رجال المدفعية يتراوح بين 20 و 30 مدفعا الى جانب عدد من المدافع وتركني أنا لحسن حظي مع أسودي ، ولكن فرحتي بذلك لم تدم طويلا . فبعد شهرين من سفره وصلني أمر بتسليم وظيفتي الى الحارس القديم والالتحاق بالمعسكر في الحين ، فوضع تحت تصرفي بغل وما يكفي من الرجال لحراستي .

وبلغنا المعسكر — بعد مسيرة 48 ساعة وأخبر الباي بوصولي ، فدعاني للمثول بين يديه وشكرني ، وأخبرني بأنه يريد أن يهاجم معسكر الفرنسيين قرب عنابة . ولذلك فهو في حاجة أكيدة لخدماتي ، لأنني أفضل من يعرف قوة المسيحيين وطريقتهم في المباشرة . الا أننا في سيرنا ، لم نتجه نحو الممتلكات الفرنسية مباشرة . وانما اتجهنا أولا نحو غرب قسنطينة الى منطقة المدية لاختضاع سكانها الذين أخذوا يتاجرون مع الفرنسيين ومنعوا العشور عن أحمد باي .

وتقع مدينة المدية على بعد حوالي 50 ساعة بالجنوب الغربي من قسنطينة ، وكان الفرنسيون قد احتلوها فيما بين 1830 و 1831 ، ولكنهم طردوا منها ، فلم يكن من المفروض على سكانها أن يدفعوا العشور لا للفرنسيين ولا لأحمد باي . غير أن فلاحي المدية ، الذين كانوا يسكنون على بعد 20 ساعة من قسنطينة ، كانوا دائما يدفعون العشور للباي ، لكنهم قطعوه عنه عندما تأكدوا من حماية الفرنسيين لهم .

كان معسكر أحمد باي يتكون من 120 خيمة كبيرة شبيهة ببيضة مقطوعة من الوسط ، تكون شكل دائرة ، تتسع الواحدة منها لخمسين جنديا من المشاة ، وفي هذه الدائرة توجد خيام الفلاحين الفرسان المختلفة الأشكال والألوان ، وهي ليست للباي وإنما هي لأصحابها ، ويتولى عبيدهم نقلها فوق البغال والجمال . وفي مركز الدائرة تنتصب في مكان عال ثلاث خيام بيضاء خاصة بالباي ، وهي طويلة الشكل ، جدرانها وأرضيتها مغطاة بزرابي نفيسة .

وكان الباي يخصص الأولى لاستقبال الوزراء والأجانب ، وكانت الثانية خاصة بتناول الطعام ، أما الثالثة ، وهي متصلة بالثانية بواسطة باب ، فخاصة باقامة الحريم . وكانت هذه الأخيرة واسعة جدا ، يحيط بها من الخارج حاجز ، ويحرسه في الليل أربعون جنديا ، بالإضافة الى ثلاثين أو أربعين كلبا من الكلاب الكبيرة ، كانت مربوطة بالسلاسل .

وعندما تأهب المعسكر للسير ، تقدمه اثنا عشر بغلا محملة بدواليب جميلة . بعضها مغطى بازرق خضراء ، وبعضها الآخر بأزرق حمراء وكان في الخضراء منها نساء الباي ، وفي الحمراء خادمتهم ، وكلهن من الزنوجيات .

وكانت الحراسة تقام في الليل أمام كل خيمة من خيام الجنود ، وينادي الحراس في الليل أمام كل خيمة من خيام الجنود ، ينادي أحدهم الآخر وكانوا يغيرون في كل ساعتين ، حين أنه كان علي حراس الخيام ، التي تقع داخل الدائرة ، أن يظلوا طوال الليل كله واقفين أمام الخيام ، ولم يكونوا هم الذين يحرصون على أن يبقوا يقظين ، وإنما كان هناك قائد أسود ينادي باسم الخيمة في كل نصف ساعة ، فكان على الحراس أن يجيبوه . وكان الباي يتولى بنفسه الاشراف على جناحه لأنه كان يعيش ، أثناء الليل وأطراف النهار ، في خوف على حياته وحياة نسائه . وكان يستعمل لذلك خراة خشبيه مثل تلك التي يلعب بها الأطفال عندنا فكانت لكل حارس خراة من هذا النوع ، وكان عليه ، كلما حرك الباي خراة ، ويحدث ذلك مرات في الليل ، أن يجيب بتحرك خراة .

وكان أيضا كثيرا ما يتفقد الحراس بنفسه ، والسيف في يده ، فاذا وجد أحدهم نائماً ، قطع رأسه في الحال ، وقد وقعت حسب روايات الجنود أحداث كثيرة من هذا النوع .

وبدأنا السير ، واستغرق ذلك خمسة أيام . وكان العرب يركبون في المقدمة ، ويتبعهم الباي وحاشيته والبغال والجمال التي تحمل نساءه وثيراته ، وكان المشاة يسيرون في الجناحين ، وتتكون المؤخرة من حشد كبير من الفرسان العرب أيضا . ووصلنا في اليوم الخامس قرب العدو ، الذي كان قد توقع وصولنا ، فجمع قوة كبيرة ونهياً لاستقبالنا . وفي الثالثة من صباح اليوم التالي أطلقت طلقة مدفع لبدء الهجوم . فاندفعت الخيالة (الدائرة) وتتكون من عشرين ألف رجل يقودها عدد كبير من القواد ، نحو العد وفي صراخ مهول ، ولكنها جويبت بمقاومة عنيفة ، فعادت دون أن تحقق شيئاً . فاحتد الباي عندما رأى ذلك ، وجعل خمسين ريالاً جائزة لكل من يحمل اليه رأساً . ولكن الهجوم الثاني لم يجلب رؤوساً أيضاً ، فاستبد به عندئذ الغضب ، ورفع الجائزة الى 100 و200 بل 300 ريال ، وذلك ما كان ينتظره الفلاحون الجشعون .

وهكذا هجموا على الاعداء كالأسود ، ولم تمض ساعتان حتى تجمع أمام قدمي الطاغية 496 رأساً ، ولكنه مع ذلك لم يشف غليله من الدماء . فجلس أمام الخيمة ، حيث وضعت الرؤوس ، وقد وقف قرب مملوك كان ، يقدمان الجوائز لكل من حمل رأساً . ونظر الى أن قطع الرؤوس ، لانعدام الأمواس الحاده . لم يكن يتم بسرعة ، فقد حمل الكثير اسراهم الى الخيمة أحياء . غير أن الباي لم يسمح بدفع المال قبل أن يخنقوا وتقطع رؤوسهم فكان يستقبل من حمل اليه هؤلاء الاسرى المساكين بقوله : « هات الرأس ! » .

لقد حضرت بنفسى عملية اعدام بشعة من هذا النوع ، ولا أتذكر تفاصيلها الآن الا وتعتزنى برودة مريعة . كان أحد فلاحينا قد حمل الى الباي أحد أعدائه حياً ، فطلب منه

رأسه ، وفي الحين طرح ذلك الشقي أرضاً ، ثم أخرج من جيبه سكيناً في طول الأصبع ، وهو يصيح بالأسير : لا تتحرك ! وانحنى فوقه ليقطع رأسه ، ولكن موسى لم ترد القيام بواجبها ، فوضع رجله اليسرى فوق عنقه ليظل ثابتاً في مكانه ، ومسك حجراً ليضرب به السكين ، ومع ذلك فإنه يستطيع قطعه في هذه المرة أيضاً ، رغم عمق الجرح في عنق الرجل ، بسبب ثلثه وقصره ، فانزعج الفلاح من هذه العملية ، لأنها تضيع عليه فرصة أسر الآخرين ، فناداني ، أنا الذي كنت قريباً منه : تعال أيها الاخ واقطع هذا الرأس بسيفك !

ولو أنني استجبت لرغبته لكان هذا طبعاً عملاً مسيحياً خيراً ، ولكن خوفي من البايع ، أن أنا تركت محلي دون أمر منه ، وخوفي مما يترتب على سفحي لدم مسلم ، حملني على التردد في الأمر . وفي أثناء ذلك أخذ يحزب بالموسى حول عنق المسكين بالقوة خمس أوست مرات ، والضحية لا تخرج من فمه سوى كلمة ربي ربي ، وجثا فوقه ومسك رأسه بكلتا يديه ، وراح يديره الى كل جهة ونزعه أخيراً بجلده عن الجسد ....

أشكر الله على أن في وسعي الآن أن أعيش وأن أتنفس في هذه الجهة من البحر — ذلك أن قوة العادة لا حدود لها ، وليس في استطاعته أي انسان أن يعرف الى أي حد تستطيع طبيعته أن تحميه منها : لا أريد أن أخفي شيئاً : الحقيقة أن منظر هذه الأعمال البشعة اليومي قد أكسبني خشونة كبيرة بحيث أنني كنت أشعر — بأن شيئاً ينقصني حين لا أشاهد في يوم من الأيام أحداً يقطع رأسه أو يبتز . ولست أدري ، وأنا اكتب هذا ، ان كان قرائي بشعورهم النبي لا يفسرون حديثي عن هذه الأعمال الوحشية على أنها من بقايا تلك الوحشية التي لصقت بي !

كانت الرؤوس ، التي جمعت بالطريقة التي وصفتها ، توضع في أكياس كبيرة وترسل الى قسنطينة ليأشاهدها الناس ، اما الاجساد فتترك فريسة لبنات آوى ، ونظرا الى انها فسدت بسبب الحرارة الكبيرة وسممت الجو ، فقد وجب علينا أن ننقل معسكرنا الى مكان آخر يبعد بست ساعات . وأقيمت الحراسة في الليل وبقي كل شيء هادئاً وبدأ الهجوم ثانية في فجر اليوم التالي ، ولكن المعركة لم تكن دموية جداً كالمعركة السابقة . الا أن فلاحينا قد حملوا الينا سبعة من شيوخ الأعداء البارزين ، وكانوا كلهم من عائلة واحدة ، وكانت ملابسهم جميلة على طريقتهم ، ووجوههم بيضاء وجميلة ، تدل على عراقة النسب .

واستقبلهم البايع بلطف كبير ، واجلسهم الى جانبه في خيمته ، فأحضر كراغلي القهوة ، وقدم للبايع الفنجان الأول ، ولكن البايع رفضه ، وأمره بأن يقدم القهوة أولاً للأسرى . وسألهم أثناء ذلك بلطف مصطنع : هل تعرفونني ؟ فأجابه أحد الرجال السبعة ، وهو رجل جميل



ضخم الجثة : نعم إننا نعرفك ! فأنت أحمد باي قسنطينة . قال أحمد : « لست بايا فقط ، وأنا أيضا باشاكم وحاكمكم المطلق . لماذا انقطعتم عن دفع العشور وتجراتم دون اذني على المتاجرة مع فرنسا ؟ فجاء الجواب : « ان لنا ، أيها المولى ، أطفالا ، ومن واجبنا ان نعيدهم ، لكننا لا نستطيع أن نتاجر مع قسنطينة ، فنقودك لا قيمة لها عندنا ، ونحن اقرب الى الجزائر منا الى قسنطينة . قال الباي : طيب ، لستم في حاجة الى دفع العشور لي ، ولكن ما رفضتم أن تأتونني به ، سأخذه بنفسى ، والآن فان كل مدخراتكم ملك لي . »

وبعد هذه الكلمات أشار الى الجلاد ، وأمره بأن يقطع لكل منهم لسانه ويده ، وطيف بهم مشوهين على هذه الصورة في المعسكر ، وينادي عليهم : صارانت رومي ! ولكن انتقام الباي لم يكن يعرف الحدود ، فبعد عودتهم ، أمر بقطع أنوفهم وآذانهم وأيديهم اليسرى امام الخيمة ، ثم الطواف بهم في المعسكر . وعندما سقطوا في النهاية فوق الأرض من جرأ التزييف الكثير ، تركهم نصف ساعة في الشمس عرضة للذباب ، وبعد ذلك أمر بقطع رؤوسهم .

وفي اليوم الثالث وقع الهجوم مرة أخرى ، ففر الاعداء وتركوا لنا نساءهم وماشيتهم وغلالهم غنيمة ، فترعت الثياب عن النساء ، وتركن هناك وحيدات ، وحمل الباقي الى قسنطينة . وأدركنا نحن أيضا ظهورنا لمشهد من أبشع أنواع التقتيل ، وتركنا قسنطينة عن يسارنا ، ونقلنا معسكرنا الى منطقة الباي لنجمع عددا أكبر من الناس لمحاربة الكفار .

ينبغي أن نذكر بالمناسبة أن نجاح الحملة ضد المدينة ، قد حمل الحاج أحمد على الغرور ، الى درجة أنه جعل من نفسه باشا ، وعين بايا لقسنطينة ، وهو أحمد بن مصطفى بومزراق ، باي المدينة السابق ، وقد سمعت من يناديه باسم بومزراق أيضا . وكان قد سمي سابقا بايا ، مع أنه لم يكن له مدخول في المدينة ، وكان يعيش من ثروته الخاصة ، وكان أخوه عقيدا في الجيش الفرنسي في وحدة قناصة افريقيا . كان أحمد بومزراق قد وصل إلينا ، عندما كنا معسكرين في منطقة المديه ، بمفرده ودون أسرته بناء على طلب الباي . واقترح عليه أن يذهب معه ، بعد أن أصبح هو باشا ، الى قسنطينة ليكون بايا بها . وسواء كان قد اراد ذلك أو لم يردده ، فقد ذهب معه ولكنه لم يشارك في الحملة على الفرنسيين ، وبقي في قسنطينة ، حيث وضع تحت الحراسة السرية ، بأمر من الباشا المزعوم ، خوفا من أن يدفعه الندم الى الهرب .

كان أحمد باي بومزراق في سن تتراوح بين 42 و 44 ، وهو رجل جميل الطلعة ، طيب القلب ولم ترق له الإقامة في قسنطينة ، ولكنه لم يدع أحدا يلاحظ ذلك . وعندما رجعنا . اقترح على الباشا أن يقدم له 600 راجل وحوالي ألف من الفرسان العرب ، ليهاجم بهم العرب



الذين يعيشون حول المدينة ويحتل المدينة نفسها . فوق الباي ، وأحب أن أسميه بهذا الاسم الذي يستحقه ، في الفخ ، وتصور نفسه مالكا للمدينة ، فقد قدم له الفرق المطلوبه ، وتمنى له فوق ذلك النجاح . بل لقد أرسل له بعد أيام مبلغا كبيرا من المال ، ليدفع للجنود رواتبهم مسبقا تشجيعا لهم ولتحمل الفلاحين الأعداء على التسليم عن طريق الهدايا .

ولكن بومزراق كان له مشروع آخر ، وقد سره جدا أن يترك قسنطينة خلف ظهره ، لأن الباي كان سيقطع رأسه طال الزمن أو قصر ، فكتب الى أصدقائه سرا ، فاجتمعوا ، وكان عددهم كبيرا جدا ، عن يمين الجبال المجاورة وشمالها ، دون أن يخبر أحدا بذلك . وعندما سمع بومزراق بهم ، لم يدفع المال للجنود ، وإنما احتفظ به في جيبه ، وأمر جنوده بالسير ليلا للاقترب من العدو . وكان قد قطع مسافة ساعتين بين الجبال الممتلئة بالجنود ، حين هوجم جنوده من كل جانب ، فهزموا بعد أن فقدوا خيامهم وأمتعتهم ، وانقذ هونفسه بماله وبغاله وعاد جنودنا الى قسنطينة جرحى ومسلوبين ، وفي وسع الانسان أن يتصور مبلغ غضب أحمد بسبب هذه الحادثة ، الا انه لم يكن له وقت للانتقام .

وكان لأحمد باي ما يكفيه من الذكاء ليجعل لحملته طابعا دينيا ، حتى يتمكن بذلك من القضاء على أي شكل من أشكال المعارضة . لهذا أرسل رسائل الى جميع المرابطين ، لا في منطقة قسنطينة فقط ، وإنما في المناطق المجاورة لها أيضا ، يطلب فيها منهم ، وهم يحظون بعد الله ورسوله باحترام كبير من طرف المسلمين ويؤثرون فيهم تأثيرا كبيرا ، أن يوافقوه في الرأي ويأزروه في حربه . وبعد وقت قصير تجمع جيش يبلغ عدده 180 ألف رجل ، وقبل أن أصف هذه الحملة ، أرى من واجبي أن أقدم مشهدا مؤلما ، حزن له أشد الحزن لأنه وقع لأحد رفاقي .

قبل مسيرنا بيوم واحد نادى مناد فجأة وبصوت عال أن أسيرا مسيحيا قد حمل الى المعسكر ، فاسرع الجميع لمشاهدته ، واندفعت أنا الآخر عبر الحشد ، وإذا بفزع رهيب يستولى على ، فقد رأيت أنتون غيبها رد الماينسي ، الذي حمله ما كان يعانيه في قسنطينة من شقاء على الفرار ليلا لينجو بنفسه الى الاراضي التونسية ، وكان قد قضى سبع ليال في الجري ، دون أن يتناول خلالها طعاما ، ارتكب خطأ ، فقد توجه الى أحد الاعراب وطلب منه قليلا من الخبز . ولكن هذا الاعرابي القاسي مسكه وحمله من أقرب طريق الى المعسكر .

وعرفه أحمد باي في الحين ، وخاطبه قائلا : كلب أنت روعي ! فأجاب رفاقي : فررت يامولاي لقلعة الغذاء واللباس . فقال الباي : طيب ، سأقدم لك شيئا من ذلك . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أمر بوضع القيد في رجليه ، وطلب من مماليكه أن يحضروا الكلاب ثم

أخذ يشليها على المسكين بقوله «هبر» ولكن الكلاب لم تعضه ، وإنما وثبت مارة به نحو بقرة ، فغضب الطاغية ومسك كلبا من السلسلة ، وحرّضه مرة أخرى وهو يدفعه ليريه الهدف ، نحو صدر غبيهارد ، وعندئذ مسكه الكلب الحائق في عنقه ، وتبعته الكلاب الأخرى ووثبت عليه من كل جانب ، وبعد لحظات كان يضطجع فوق الأرض عاريا مدرجا بدمائه — ياغيهارد الطيب ، يارفيقي في الشقاء ، يا صديقي الغالي ! ترى هل يصدق من رآك في تلك الحالة أنك تعيش اليوم في فرنسا في هناء وعافية ؟ حقا أن الذي انقذك لا يمكن أن يوصف إلا بأنه معجزة حقيقية — لقد أحس كبار رجال الباي ، الذين كانوا يحيطون به بعاطفة إنسانية ، وتوسلوا إليه أن يعفوعته ، فأمر الباي ، عن كرم أو نباهة ، بمسك الكلاب وإرسال المعذب المسكين إلى المدينة وهناك عالج نفسه بنفسه ، ونال حريته معي في الوقت نفسه .

وأخيرا تقدم الجيش ، وكان الخليفة ، ومعه أربعة آلاف فارس و 800 رجل يشكل الطليعة ، وتقدم الأولياء ، الذين يبتدئون كل أعمالهم بمدائح وأدعية ، وهم في الحقيقة أكثر رجال الدين وحشية في العالم كله ، يشكلون مع أتباعهم الميمنة والميسرة ، وكنا ، نحن المدفعيين ، ومعنا هاوانان وقاذفان ، وثلاثة مدافع ، والباي وحاشيته ، نكون القلب . أما نسائهم وكنوزهم فقد بقيت تحت الحراسة القوية ، على مسافة يومين خلفنا . وكان أول ما حدث هونهب جميع القرى التي احتلت بفرنسا ، واكتساحها وهدمها ، أما الفلاحون أنفسهم فقد اقتربوا ، خوفا من أحمد باي ، من معسكر الفرنسيين ، الذي بلغناه أخيرا في السادسة مساء . ووضعت خطة الهجوم في الليل ، فقرر الباي أن يهجم على المعسكر من جميع الجهات بأربعين ألف فارس في آن واحد ، بينما تكمن المدفعية والمشاة لتقطع على الفرنسيين طريق الهروب .

وقد زاد من شجاعة أحمد ما أخبره به فلاّحان أسيران من أن المعسكر الفرنسي ليس له من الذخيرة والمواد الغذائية إلا ما يكفيه لمدة ثلاثة أيام ، وأنه لم يبق له شيء من الماء . وكانت مكافأة الباي لهذين الفلاحين على هذه الأخبار المهمة ، التي استخرجها منهم عن طريق الوعد باطلاق سراحهما ، أنه أمر بعد ذلك بقطع رأسيهما . وهذا هو عين ما حدث لأحد عربنا ، فقد أسره الفرنسيين وحملوه إلى المقدم يوسف ، قائد المعسكر ، فأطلق سراحه بدافع سياسي بعد أن قدّم له حذاءً جديداً وبرتسا أحمر وأعطاه فوق ذلك عشرين فرنكا . وعندما عاد إلى معسكرنا ، أخذ يتحدث عن كرم يوسف ، وهو ما كان يوسف يهدف إليه ، فاستدعي في نفس اليوم للمثول بين يدي الباي ، فقال له دون أن يطيل الحديث معه : « أن البرنس يواتيك : » ، ثم أمر بضرب راسه . ومثل هذه الأعمال لا تعود إلى الذكاء بقدر ما تعود إلى القسوة ، وتدل على ذلك حادثة أخرى . فقد القت ثلاثتنا القبض على خمسة مالطين ، كانوا يعملون

خارج المعسكر ، ولكن الباى وهبهم حياتهم واكتفى بارسالهم الى سجن قسنطينة ، وذلك لأنه كان يرغب في صداقة الانجليز ، الذين تقع مالطة تحت حمايتهم .

وفي صبيحة اليوم التالى وقع الهجوم ، فاندفع العرب في غضب ، ورفعوا البنادق فوق رؤوسهم وأطلقوا النار فوق المعسكر ، ولكن الفرنسيين اطلقوا عددا كبيرا من القذائف ، وألحقوا بالفلاحين خسائر فادحة ، وأرغموهم على الرجوع . وأعاد أحمد الكرة عدّة مرّات ولكن محاولته باءت بالفشل . وعندما يئس من تحقيق هدفه ، ارتحل في الرابعة مساء ، وعاد الى قسنطينة بخفي حنين .

وفي طريقنا الى قسنطينة توقّفنا قرب قالمه على نهر سيوس ، حيث كانت توجد مراعى جميلة للخيول وغيون حارة في منحدر تل صغير . وقد روى لي الهرب أن هناك بالقرب منها واديا لا يجرؤ أي مسلم على دخوله ، لأن زواجا محرّما قد تمّ فيه ، فعوقب الضيوف على ذلك وحولوا الى جبال مكورة الشكل كما تحوّلت القدور التي يتصامد منها البخار الى حمام يغلي . ولا يزال الحمام الى الآن يدعى حمام المسخوطين . وقد دخل عربي هناك أثناء الليل صدفة ، فرآى عددا كبيرا من القطع الزجاجيّة ، ودون أن يفكر في شيء ، أخفى في جيبه قسما منها ، ولكنّ بما أن طريقه كان بعيدا ، وأصبح الحمل يزعجه فقد رمى بها ثانية ، فلاحظ في أثناء ذلك أن الزجاج يلتصق كالجمرات الملتهبة ، فانحنى في الحين ليرفعها ، وفي تلك اللحظة تلقى ضربات فظيعة من شيء غير مرئي . فجرى بعد ذلك الى البيت ، وحين أدخل يده في جيبه وجد لحسن حظّه قطعة من الزجاج ، الذي كان قد أخفاه فيه ، واذا به يكتشف بفرحة أنها قطعة من الذهب الخالص . وأسرع الجيران ، الذين روى لهم الحادثة ، الى عين المكان ، ولكنهم لسوء حظهم لم يجدوا زجاجا ولا جمرا فضلا عن الذهب .

## الفصل الثامن

### مصار غير متمر لمدينة قسنطينة من طرف الفرنسيين

في نوفمبر 1836 م

لم نكد نعود الى قسنطينة ، حتى حمل عيوننا رسالة من المقدم يوسف ، أخبرنا فيها بأنه سيزورنا هو الآخر في وقت قريب ، فلم يرتح الباي لهذا الخبر ، ولذلك لم يقيم في المدينة طويلا ، بل جمع أمتعته وكنوزه للمرة الثانية ، ونقل معسكره الى رأس العقبة شمال قسنطينة ورافقته في رحلته هذه . ولم تمض مدة طويلة حتى جاءنا الخبر بأن الفرنسيين سيصلون بعد حين الى قسنطينة ، وشاهدنا بالفعل طلائع جيشهم في 21 نوفمبر .

كان الطقس رديئا جدا ، فقد تساقطت ثلوج كثيرة ، وكانت تذوب بعد لحظات وكانت الطريق غير معبدة ، فتحولت الى مستنقعات ، مما جعل الجيش يتقدم ببطء ويتعرض لعدة هجمات ، يفقد خلالها مدافعه وذخيرته . وكان قد ترك عناية تحت قيادة اللواء كلوزيل في 13 نوفمبر ، ووصل في نفس اليوم الى بوحرفة وعسكر في اليوم الثاني في محالفة ، لان الأمطار كانت قد بدأت تنزل بشدة ، وبلغ في يوم 15 وادي سييوس قبالة قلعة ، وسار على امتداد الوادي عبر جبل السعادة ، وعبر يوم 19 وادي الزناتي ، حيث هوجم من طرف قسم من خيالتنا دون حدة ، وتكررت هذه الاشتباكات في أغلب الاحيان ، واخذت الطرق تفقد قرارها بسبب نزول البرد والأمطار ، واشتدت الرطوبة والبرودة على الجنود لقلة الخشب وبلغت أعلى درجاتها عندما وصل الجيش مساء يوم 20 الى الصومعة ، وهي مرتفع يبعد حوالي ميلين ونصف عن قسنطينة . وبعد ظهورهم بوقت قصير حمل عربنا رقبيا فرنسا شابا ، لا تتجاوز سنة الثامنة عشرة الى الباي في معسكره . وكانوا قد ألقوا عليه القبض وهو في طريقه الى المعسكر ، الذي كان يبعد بحوالي نصف ساعة ، لانه كان بصفته قناصا من قناصه الطليعة ، قد مرض ،

ولم يكن هناك طبيب يسعفه . فطلب مني أحمد باي أن أسأله عن مدى قوة الجيش وعن عدد مدافعهم ، وعفا عنه بعد أن أجاب عن ذلك بصدق ، ثم ندم الباي على ذلك ، وأمر - بأعدامه فأعدم بطريقة غير لائقة

وفي 21 نوفمبر وصل الفرنسيون في الساعة الثانية بعد منتصف النهار أمام أسوار قسنطينة ، وفي الحين أرسلني الباي ، وكان يثق بي كل الثقة ، تحت حراسة مشددة ، إلى المدينة ، لأدافع عنها وأحافظ عليها قدر المستطاع من الوقوع في أيدي الفرنسيين . ونظرا إلى أننا لم نستطيع الوصول إلى أي باب من أبواب المدينة الأربعة ، لأنها كانت قد سدت وهوجمت من طرف خيالة العدو ، فقد حتم علينا أن نسلك طريقا ملتويا إلى الصخور الشمالية ، التي يوجد بها باب ، كان قد ثقب فيها ، يفضي إلى القصبة حتى نتمكن من الدخول إلى المدينة . وقد حضرنا في الوقت المناسب ، إذ أن المدينة حوصرت بعد ذلك من طرف الفرنسيين من جميع الجهات . كانت طليعة الجيش قد عبرت الوادي الكبير الذي يمر شرق المدينة ، واحتلت كدية عاتي ، وهي مرتفع يقع مقابل الرحبة ، بينما أصبح الجانب الشرقي من المدينة مهددا من هضبة سيدي مبروك .

كان المقدم يوسف قد أوهم الفرنسيين بأن أهالي قسنطينة سيسلمون المدينة بمجرد أن يشاهدوا الجيش الفرنسي وقوى أملهم حين رأوا ، عند وصولهم ، الأبواب مفتوحة ، وعدد من السكان يتنزهون فوق جسر باب القبطرة . وقد ضلوا في ذلك غاية التضليل . فبرغم أنه كان هناك ، إلى جانب اليهود ، الذين يبلغ عددهم تسعة آلاف ، عدد من أعيان قسنطينة ، الذين كرهوا أحمد باي لقسوته ، يتمنون وصول الفرنسيين إلا أن أغلب سكان المدينة كانوا من الطبقة الفقيرة والمتوسطة ، ولذلك كانوا متعصبين ومعادين للفرنسيين إلى حد كبير ، ولو بلغ عدد الجيش مليون رجل ، فإنهم كانوا سيبدلون أقصى جهدهم للمحافظة على المدينة ، وكانوا يفضلون الموت على تسليم أنفسهم للفرنسيين . وكانوا قد أقسموا في المساجد كلها بأنهم على استعداد لخنق نسائهم وأطفالهم ثم البحث عن الموت في حراب الفرنسيين .

وبالإضافة إلى ذلك كانت الأخبار تصل يوميا عن طريق الجواسيس ، الذين كانوا يؤكدون أن الجيش لا يزيد عدده عن 12 ألف جندي ، ومدافعه لا تزيد عن 12 مدفعا . لذلك كانوا يذهبون للترهة خارج المدينة حتى وصول الفرنسيين ، وهم فرجون مبتهجون بأنهم سيحصلون على كل هذه الرؤوس في وقت قريب . وعادوا بعدئذ إلى المدينة بأمر القائد ، وحصنت ثلاثة أبواب ، ولا سيما باب الرحبة ، الذي وقع عليه الهجوم الرئيسي . أما باب الوسط وهو باب الوادي ،



الذي كان يؤدي الى الباب المجاور ، فقد أغلق فقط ، وذلك للفرار منه عند الضرورة ، وقد فعل على بن عيسى ، وهو عدو للفرنسيين بقدر ما هو صديق للباي ، كل ما في وسعه لبث الشجاعة واثارة الغضب في نفوس السكان ، بينما حاول قائد الدار أو مولى البلاد وشيخ البلاد اقناع الشعب باستحالة المحافظة على المدينة ، ولكن المواطنين استاءوا من حديثهما أشد الاستياء .

ففي أثناء الحصار ، حملت اليهما العرب رسائل عديدة ، دعي فيها المواطنون الى التسليم فدعيا الى اجتماع عام في الجامع الكبير ، وأوضحا للاهالي بأنه من الافضل لهم أن يمتنعوا الفرنسيين من دخول المدينة حفظا لأرواحهم وأرواح أسرهم وحتى لا تهدم المدينة فوق رؤوسهم . وعندئذ هجم عليهما الشعب في غضب ، وبصق في وجوههما ، وهددهما بالخنق ان هما استلما مرة اخرى رسالة من الكفار ، وأخذ الرسالة ومزقها وداسها بأقدامه . وعندما سمع القائد بذلك ، أمر بوضع الرجلين في القيود وأخبر الباي بذلك خارج المدينة ، وبعد انسحاب الفرنسيين عفي عنهما ، ولكنهما ألزما بدفع غرامة كبيرة .

ومن بين المريدين للفرنسيين رجل يدعى الشيخ العربي ، وهو كرغلي تبادل مع الفرنسيين عدة رسائل . وبما أنه لم يكن ينتظر استقبالا طيبا من طرف الباي بعد رحيل الفرنسيين ، فقد انضم الى الجيش الفرنسي ليفر الى عنابة ، ولكن العرب القوا عليه القبض وأعادوه الى قسنطينة ، حيث أمر الباي ، دون استئذان طويل ، بتقييده والطواف به فوق بغل ، ثم شنقه في كوة مستعملة لاطلاق النار 29

وبعد غلق الابواب مباشرة ظهر امام المدينة عربي مرسل من طرف الفرنسيين وطلب الاستسلام ، فكان جواب الاهالي طلقة مدفع خلفه . وعندما اقتنع الفرنسيون بأنهم لا يستطيعون الحصول على شيء بالطرق السلمية ، بدءوا يضربون المدينة بالقنابل ، ولكنهم لم يستطيعوا هدم الاسوار ، لان عياراتهم كانت صغيرة جدا ، وازداد الطقس رداءة ، فلم يكن في استطاعته الجيش أن يضرب حصارا طويلا حول المدينة ، ولذلك قام بمحاولة حاسمة ، ففي 23 نوفمبر حضر في الحادية عشر ليلا أربعة عشر نقابا قرب باب الرحبة بقصد نسف الباب بالبارود . كان القمر ساطعا ، فاستطاعوا أن ينفذوا عبر دكاكين الحديد ، التي تقع خارج الباب والتي كانت القنابل قد حطمت نصفها ، ووصلوا تحت قوس الباب . وانبعثت من فوق سور المدينة طلقات كثيفة من البنادق ، ولكن الرصاص لم يصب هدفه

ولم يكن هناك مدافع في باب الرحبة ، ومن ثم كان بعيدا عن مرمى مدافع الابواب الاخرى : وفجأة ظهرت فرقة من سلاح المشاة بمدفع ، رأيناه يلتمع في ضوء القمر ، فاطلقت



النار عليه، ولكن دون جدوى لانه كان قد اختفى خلف البيوت المهدامة . وعلى حين غرة سمعنا طلقة . -- فاكشفنا في الحال أن الرصاصة قد نفذت فوق قفل الباب الذي كان النقبون يعملون فيه ، ويحاولون أن يملأوا الثقبه بالبارود لنسف الباب في الحين . وحتى لو فرضنا أنهم نجحوا في ذلك ، فانهم كانوا سيجدون خلف الباب الخشي قبة ، طولها 18 خطوة ، مشيدة بالجبس والحجارة الكبيرة ، تجعل التسرب منها مستحيلا ، لكن نسف الباب نفسه لم يتم فعندما أطلق العيار الناري ربط المواطنون الحبال حول المدفع ، ونزلوا بها السور، وألقوا القبض على الاربعة عشر نقابا وقتلوهم فكان على الفرقة أن تتراجع بسرعة ، تاركة خلفها المدفع ، الذي رفع فوق السور في الليلة نفسها .

كنت اود من كل قلبي أن ارى المدينة في ايدي الفرنسيين الا اني لم يكن في وسعي أن أقدم لهم أية مساعدة في ذلك. وشاهدت، بقلب حزين، انسحاب الجيش في صبيحة اليوم التالي، وكنت كما لو أن آخر أمل لي في النجاة من هذه الكلاب الدموية قد أراني ظهره. وكان من المؤكد أن يتم الانسحاب دون خسارة ، لو أن الجيش اجتمع كله في الليل ولم تبق المراكز الامامية في. مواقعها حتى الفجر. لقد اتاح ذلك لعلي بن عيسى أن يحيط الباي علما بظروف العدو ، فأمر الباي بفتح الابواب عند الفجر ، ومهاجمة العدو بالسيوف حتى يتمكن هو من مهاجمته من الخلف .

وقد نفذ هذا الأمر بدقة ، فاندفع الشبان والشيخ ، وهم نصف عراة ، عبر الأبواب الى الخارج ، والسكاكين بأيديهم ، فحاطوا بالمراكز الامامية ، وقتلوا من فيها ، وقطعوا رؤسهم ، وجملوها الى القلعة ولحقوا بكثير منهم وهم هاربون فمسكهم من شعورهم وضربوا رؤسهم . ودخل الاتراك والقبائل من جميع الابواب ، وهم ملطخون بالدماء من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وكان في يد كل منهم ما بين أربعة وخمسة رؤوس ، وكان الحاكم على بن عيسى جالسا فوق القلعة ، فاجتمع في أقل من ساعة خمسمائة رأس فرنسي . ولم يستطع المدفعيون ، الذين لم يبق لهم عمل يقومون به ، السيطرة على رغبتهم في القتل وجمع المال ، فاسرعوا بدورهم الى الخارج لجلب رأس مسيحي ، فكنت أشاهد ، وقلبي يذمي ، عدد الرؤوس يتزايد باستمرار. وحمل كذلك ثلاثة من العرب أحياء ، وبعد أن أرغموهم على مشاهدة تلك المجزرة المريعة أعدموهم أيضا .

وكانت الفرق، التي اتخذت مظهر تشكيلة مربعة، محروسة بصورة أفضل، الا أن عربات الامتعة والذخيرة ، وعددها حوالي مائة ، وقعت كلها بما في ذلك الجنود الذين كانوا يحرسونها ،

في أيدي القبائل فقتلوههم ونزعوا عنهم ثيابهم. أجل، وحين لم يبق مسيحي واحد خارج التشكيلة المربعة ، هوجمت التشكيلة نفسها ، وكان الثلج والوحل العميق قد عاقاها عن السير بسرعة ، هاجمها الفلاحون والمشاة من جنود الباي من إحدى الجهات ، بينما هاجمها هو وفرسانه من العرب والقبائل من الجهة الأخرى . وهكذا لقي حتفه عدد من الجنود المساكين الذين كانوا قد عجزوا عن السير نتيجة لما أصابهم من جروح وما اعتراهم من تعب ، بعد أن أرغم الآخرون على التخلي عنهم ، فتركوهم ليذهبوا ضحية القسوة الشنيعة . ووقع خمسة عشر منهم في يد الباي نفسه ، فعفا عنهم ، ولكنه أمر بأن يقيدوا وأن تسند اليهم أصعب الأعمال وأشقها .

وتراجع الجيش الفرنسي ، وهو يهاجم بهذه الطريقة ، مسافة أربع ساعات ، كان عليه أن يقطعها بشق الانفس . ونظرا الى أن الهجمات كانت تزداد حدة بصورة مستمرة فقد حاول الجنود في المساء ان يتحصنوا، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك، اذ أن التربة كانت تسيح بمجرد أن تكون ، وذلك بسبب الرطوبة، ومن ثم لم يبق للجيش الا أن يقضي الليل كله عرضة لنيران العدو . وعند مطلع النهار واصل انسحابه، ولكنه أضر الى ترك عدد من الجرحى والمتعبين ، فلقوا نفس المصير. وبما أن المسافة نفسها كانت قد أصبحت بعيدة، وصار من المزعج أن ينقل الناس الرؤوس المقطوعة معهم ، فقد رضي الباي بأن تقطع آذان القتلى وتحمل الى قسنطينة ضمانا للحصول على المكافأة . وبعد انسحاب الفرنسيين وصل في اليوم الرابع قبائليان الى المدينة ، ومع كل منهما عصا طويلة ، ربط بها خيط ، ثبتت فيه أكثر من أربعمئة أذن . وعاد الناس بعد ذلك ، ولكن الباي طارد الفرنسيين حتى مدينة غالة ، التي كان لهم بها معسكر ، فاستطاعوا أن يتحصنوا ويستريحوا فيه . وعقب ذلك دخل الباي مدينة قسنطينة في موكب كبير .

وأقيمت أفراح حقيقية شبيهة بأفراح الهمج ، استمرت ثلاثة أيام ، وذلك ليحتفلوا برسولهم ، الذي هزم الفرنسيين في اعتقادهم . ووضعت رؤوس الأعداء خارج المدينة في مكان قريب ، وعلقت الاذان في عمود فوقها . وحملت الجثث من أرض المعركة الى المدينة ، فوضع النساء والأطفال الجبال في أقدامها ، ثم سحبت عبر الشوارع وصارت مشهدا من مشاهد التسلية العامة . وكان عدد كبير من النساء يسير خلف الجثث ويضربها بالعصي . وأخيرا فرضت عليهم الروائح الكريهة أن يحرقوا تلك الجثث في كوم كثيرة ، ولكنني رأيت بعد شهر من ذلك رؤوسا وآذانا وأذرا وأرجلا تسحبها الكلاب .

وبعد ان عاد الهدوء الى المدينة ، خرج الاهالى لجمع الالبسة والادوات التي تركها الفرنسيون وحملوها الى المدينة ، وأصبح المرء يرى الالبسة والاسلحة الفرنسية تباع في جميع الاسواق ، ولا سيما البسة المدفعيين ، الذين كانوا عرضة لهجمات الاعداء أكثر من غيرهم . وقد اضطر أحدهم الى البقاء ، فاختفى في كومة من التبن ، ولكن الجوع أرغمه على الخروج في اليوم الرابع ، فوقع في أيدي القساة . وكنت قد خرجت في اليوم نفسه من المدينة للبحث عن القذائف الفرنسية ، فشاهدت حشدا من الناس حول تلك الكومة من التبن ، فانجذبت انا الآخر الى هناك . كان المسكين عاجزا عن الوقوف فرجوت النمر الواقفين حوله والمسرعين اليه الا يلحقوا به الاذى وان يتركوني اتكلم معه . وبالحالها من فرحة غمرت نفسه حين خاطبته بلغته : ورجاني أن أحفظ عليه حياته واقدم له قليلا من الخبز . لذلك رجوت الواقفين حوله مرة أخرى ألا يأذوه الى أن أعود من عند الباي ، فوعدوني بذلك . فذهبت اليه ورجوته أن يعفوه عنه ، ولما رجعت بالعفو وجدت القساة قد كسروا رأسه بحجرة وقطعوه .

## الفصل التاسع

تحصين المدينة - الحاصرة الثانية لفلسطين واعتدائها من طرف الفرنسيين  
سنة 1837 - وضع المؤلف البائس - محظيات الباي - الاستسلام في حظيرة  
الأهود - استجواب في فلسطين - الاستجواب الأخير في مارسيليا .

استأنفت عملي في حظيرة الاسود بمجرد أن سمحت الظروف بذلك . وكانت الحيوانات  
المسكينة قد عانت عناء كبيرا من الجوع ، لأنه لم يتفرغ لها أحد ، وقطعت سلاسلها باستثناء  
اثنين منها . وعبرت عن فرحتها ، عن طريق الزمجرة ، بعودة سيدها القديم ، وتركتني أربطها  
ثانية بسهولة وطواعية . ولكن اقامتي لديها لم تدم طويلا .

كان أحمدباي قد أدرك أن الفرنسيين لن يتأخروا في أن يتداركوا خطأهم ، ولذلك اتخذ  
احتياطاته ليقاومهم بشدة أكثر في حالة ما اذا قاموا بحملة ثانية . فأمر باصلاح عربات المدفع ، واقامة  
تحصينات جديدة ، وتقوية التحصينات القديمة ، وتحصين المدينة بصورة عامة قدر المستطاع ،  
ودعاني ذات يوم وأخذني معه الى القسبة . وهناك قال لي : اعتقد ، يا عبد الرحمن ، أن هذا  
المكان صالح لضرب الاعداء اذا هم اتخذوا موقعهم فوق الجبل المقابل ، فعليك أن تقيم  
بطارية هنا ، تكون تحت تصرفك . ولاقامتها عليك أن تستخدم الاسرى الفرنسيين الخمسة  
عشر والعدد الذي تحتاج اليه من اليهود .

واقامت بطارية من التربة المخلوطة بنبات النخيل ، كثافتها 18 قدما وطولها 20 قدما ،  
ولها كوتان لا يتعدى 11 متر من مدفعين من عيار 24 ومدفعين من عيار 50 ، وانتهى بناؤها بعد  
مرور شهرين . ولم يسمح لي الفرنسيون الخمسة عشر أبدا باستخدامي اياهم في هذا العمل ،  
ولم أنج فيما بعد من التهمة التي وجهت الي على هذا الاساس الا بشق النفس .

بقي الباي ، على غير عادته ، مدة طويلة في المدينة ، وذلك بسبب التحصينات التي كان  
يقيمها . وفي شهر ماي وصلت لأول مرة اخبار مفادها بان الفرنسيين قد بنوا الطرق ، واقاموا

معسكرات جديدة ، وأخذوا يزحفون ببطء ، وفي شهر يونية وصلت أخبار للمرة الثانية تقول بأن فرقا فرنسية جديدة قد وصلت ومعها عدد كبير من المدافع وعربات الذخيرة وأن الحملة ستتم عما قريب . وعندئذ جمع الباى كنوزه وخرج بقوة كبيرة لمقابلتهم ، غير أنه عاد بعد وقت قصير دون أن يحقق هدفه ، وعسكر على بعد ساعتين من المدينة ، لينتظر النتيجة التي لم تكن في صالحه هذه المرة .

وبدأ الجيش الفرنسي حملته الثانية في بداية اكتوبر سنة 1837 ، وكان يتكون من ثلاثين ألف مقاتل ، ويحمل معه 36 مدفعا من العيار الثقيل ، ولذلك خافه أهالي قسنطينة أكثر مما خافوه في المرة السابقة . ومع ذلك فقد وضعوا ثقتهم في نبينهم محمد ، وتصوروا أن في وسعهم الحفاظ على المدينة ، ورفضوا في عناد كل العروض المناسبة للتسليم .

وعندئذ حاصر الفرنسيون المدينة من كل جهة ، ونصبوا فوق سيدي مبروك قبالة بطاريتي ثلاث بطاريات متحركة ، وبدأوا يقذفون المدينة بالقنابل والصواريخ الكونغريفية . وكانت بطاريتي أكثر عرضة للنيران الفرنسية ، وبعد أن تبادلنا هكذا اطلاق النار مدة ثلاثة أيام ، كان أغلب رجال مدفعيتي قد قتلوا ، وكانت بطاريتي قد تحطمت .

وفي ذلك الحين طلب منى القائد أن أترك موقعي وأتوجه الى القلعة ، التي كان الفرنسيون يحاولون منذ يومين وليلتين أحداث ثغرة فيها لنصب بطارية . وهناك سألني عن هدف العدو من ذلك ، وقال لي انه يعتقد أن الفرنسيين يريدون نسف المدينة ، ولكنهم لن ينجحوا في نسفها لانها مبنية فوق صخرة . - وقلت له الحقيقة ، غير أنه لم يصدق كلامي ، بل سخر مني .

وفي الليلة الرابعة وصل خمسة فرنسيين كانوا قد فروا من الجيش الفرنسي ، من بينهم ثلاثة أتراك ، ووقفوا تحت السور ، وطلبوا منا أن نقدم لهم قليلا من المواد الغذائية لوجه الله ، فهم يكادون يموتون جوعا ، وأعلنوا أنهم يريدون الاعتراف بكل شيء ان وجدوا من يرحمهم ، فأمر القائد بانزال الحبال ورفعهم الى أعلى السور . وبعد أن رويوا كل شيء بالتفصيل أمر القائد بقطع رؤوسهم فقطعت ورميت اجسادهم من فوق القلعة ، وعرضت رؤوسهم فوق السور .

في صباح اليوم الخامس بدأت البطاريات الثلاث المذكورة ، بالاضافة الى ثلاث أخرى خاصة بأحداث الثغرات في السور ، تقذفنا بشدة ، فاهترت الاسوار وتهافت الكوى المخصصة لاطلاق النار ، وكانت قطع من مدافعنا قد حطمتها مع عرباتها رصاص العدو ، فتناثرت في الهواء ، وامتلات القلعة بجثث المدفعيين ، حيث أصبح من الصعب المرور من بينها تقريبا .



وصرت في وضع خطر، فقررت أن أنزل بالحبل في الليلة القادمة، وأفر الى العدو. الا أن القائد الذي لم يضع ثقته في منذ أول وهلة واتهمني بأنني سأستعمل كل الطرق لادخال الفرنسيين الى المدينة ، أمر بتشديد الحراسة علي ، وحرص هو نفسه على أن يكون دائما قريبا مني .

ودعا في هذه الليلة نفسها من بقي حيا من المدفعيين وقرأ علينا أمر الباي التالي : « اذا لم يقيم عبد الرحمن بواجبه وأظهر أي ميل الى المسيحيين ، فإن على القائد أن يضرب رأسه قبل دخول الفرنسيين . » وعندئذ أصبح الموت بالنسبة لي أكثر من مؤكد . فرأسي سيقطع اذن حتى ولو قمت بعشرة أضعاف واجبي . واذا أنا وقعت بصفتي مدفعيا أسيرا في أيدي الاعداء ، فإن ما ينتظرني ليس أحسن من ذلك . فما العمل اذن ؟

لقد وقفت خلف مدفعي وأخذت أطلق القذيفة بعد الاخرى حتى المساء دون توقف ، ولكنني كنت أرسل القذائف فوق رؤوس العدو، وهو ما لم يلاحظه العرب، اذا كان يرضيهم أن يكثر دوي الطلقات ! وهكذا جاء اليوم السادس من الحصار: كانت الثغرة قد فتحت، ومدافعنا قد أسكتت باستثناء مدفعين ، وكان الاحياء من المدفعيين قد شعروا بالخوف ففروا كلهم ليلا من القلعة وذهبوا الى بيوتهم ، وفي الخامسة صباحا أطلقت أنا أيضا آخر طلقة . كانت كوتي قد أصيبت ، واتسعت بمقدار 8 أقدام ، وكنت واقفا مع تركيين ، لم يكن أي منهما على استعداد لمسك طمار المدفع وحشوه ، فلم يبق لي عندئذ الا أن أقوم بذلك بنفسي ، واستغرق حشو المدفع نصف ساعة ، ومن أثناء ذلك كان التناصبة يوجهون النار نحونا بشدة وحين أردت وضع رصاصة لم تكن مرتبطة بالبارود ، وقعت قذيفة للعدو تزن 12 رطلا ، حطمت طمار المدفع في يدي ، وأصابت قطعة منها ركبتتي اليمنى ، وقطعت جزء من رأس المدفع ونفذت في جسم التركي ، الذي كان يستعمل البطارية رقم 4، وطوحت بنصف رأس المدفع ، الذي كان يحمل رقم 3 ، بعيدا .

وبذلك انتهى كل شيء . ففر القائد بن عيسى ، وانسحبت أنا الى حظيرة الاسود ، لانتظر نهايتي فيها . وفي صبيحة اليوم السابع هجم الفرنسيون ، وتسلقوا أسوارنا بعد صعوبات قليلة . وكان الكبار قد وضعوا لغما في باب الواد ، اذ أنهم كانوا قد فتحو بلاط الباب الداخلي وأخفوا البارود تحته ، وأعادوا الحجارة الى أمكنتها . فآدى انفجار هذا اللغم الى قتل عدد من الفرنسيين ، وبعدئذ بدأوا الهجوم بالحرب المسددة ، فحاول أغلب الأهالي النجاة بنسائهم وأطلقاهم عن طريق الهرب ، الا أنهم لم ينج منهم الا القليل . فقد كانت الابواب كلها مغلقة ولم يكن هناك سوى ممر ضيق يفضي الى الحرية عبر صخور منحدره .



وأراد الناس جميعا أن يسلكوا هذا الممر دفعة واحدة ، ولقلة الحذر سقط الواحد منهم بعد الآخر في هوة عمقها ستمائة قدم ، فشوه بعضهم وقتل بعضهم الآخر . وأسرعت كذلك من السراي مجموعة من محظيات الباي الى هذه المنطقة ، ورمين بأنفسهن طواعية ، حتى لا يقعن في أيدي المسيحيين ، في منحدر تلك الصخور . ومن بين موتي هذا اليوم مولى البلاد ، الذي كان قد أظهر مودته للفرنسيين أثناء الحصار السابق بكل وضوح ، ولم يترك في هذه المرة بطارته ليلا ونهارا خوفا من انتقام الشعب منه . لقد قتل ، حسب الاخبار المؤكدة برصاصة مدفع ، عندما هاجم الفرنسيين الثغرة المذكورة .

أما زميله شيخ البلد فقد اختفى خلال ذلك الوقت كله في مسجد ، ولم اره ابدا لا في الثغرة ولا في المدينة ولست أدري أهو الآن حي يرزق أم انه انتقل الى رحمة ربه . كان رجلا عجوزا في حوالي السبعين من عمره ، وهو أكبر رجال الدين الثلاثة مقاما في المدينة ، فكان بصفته هذه يرأس المسجد ، الذي يلجأ اليه المجرمون طلبا للحماية والامن ، ويشغل الى جانب ذلك وظيفة مستشار أول للباي .

وكان الشعب في السابق يعجله كثيرا ، وكان كل من يلقاه يقبل يده أو صدره . وكانت له أيضا محكمته الخاصة ، فاذا رفع أحد اليه دعوى ، فانه يحاول أن ينصفه ويبعد اليه حقه ، دون أن يضطره الى اللجوء الى الباي .

وخلال نهب المدينة ، الذي استمر اثنتي عشرة ساعة ، وصل الي أيضا عدد من الفرنسيين كانوا قد دخلوا القصر ، وكانت قبلة قد انفجرت وحطمت نصف باي ، فسهل عليهم الدخول منه الى الحظيرة ، واستولى عليهم الفرع والدهشة عندما شاهدوني في الساحة بين أسودي ، ولي لحية طويلة كالتركي ، ولم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب مني . ونادوني طالبين مني الاستسلام غير أنني أشرت ، حتى لا أفشي سري المسيحي ، الى الاسود فاجابتهم بالزمجرة والحركات الغاضبة .

ومرت فسحة من الوقت ، وبعدئذ مسك أحدهم البندقية وصوبها نحوها ، وفي لحظة واحدة وثبت الاسود مزمجرة بشدة ، وفك عزيزي قيده ، ولكنني استطعت لحسن الحظ ، حين رأيت الجندي ينزل البندقية ، أن أمسك بالسلسلة وأعيد الشبل الثائر الى الدائرة بعد أن كان قد ابتعد عني بمسافة . وبعد ذلك أفهمت الفرنسيين بكلمة أو بكلمات فرنسية مكسرة أنني أريد أن أسلم نفسي الى القائد ، فوافقوا على ذلك ، وأقاموا الحراسة أمام الباب ، وبقيت في الساحة الى أن دخل المدينة الجنرال فالي ودوق دي نيمور . فتقدمت اليهما في الحين ، ورويت

لما قصتي في كلمات قلائل فاخذاني معهما الى قصر الباي ، حيث كان علي أن أجيب على أسئلة الجنرالات المجتمعين ، عما اذا كنت أعرف انجليزيا أو مسيحيا ما ، كان يشغل مدفعيا عند الباي وبني له بطارية في القصبة .

كان هذا السؤال قد ألقى علي بطريقة خطيرة ، ولذلك ما كان يجوز لي في آخر المطاف أن أعرض حياتي للخطر مرة أخرى باعترافي بالحقيقة ، ولم أكن في تلك اللحظة قد عرفت بعد الخسارة الكبيرة التي مني بها الجيش الفرنسي ، وهي المتمثلة في سقوط الجنرال دامريمون الذي أصابته قذيفة مدفع واخترقت جسده ، غير أنني كنت أعرف أن عملية احتلال قسنطينة قد كلفت الفرنسيين كثيرا من الرجال الشجعان . وهل كان في امكاني آنذاك أن أتصور أن المنتصرين الساخطين سوف يضعون عراقيل في طريق رجل عديم القيمة مثلي أو أتصور أنهم سوف يقيمون وزنا لاعمالى السابقة ، التي أرغمت عليها ارغاما ، وكل ذلك من أجل رد الاعتبار للكرامة الفرنسية التي جرحتها الهزيمة السابقة ؟ ان العاطفة لتكون في هذه اللحظات أقوى من العقل .

لقد أجبت على السؤال السابق بالنفي التام ، ولم ألتزم الصدق الا حين أحجمت ، رغم الالاحاح الشديد ، عن الاعتراف بأن مدفعيا انجليزيا قد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة . وأطلق سراحي بناء على هذا الجواب ، وأرسلت في الحين مع الفيلق الثاني الى عنابة ، ورحل معه أيضا عدد كبير من الحضر ، الذين كانوا يقيمون سابقا في عنابة أو الجزائر وفروا الى قسنطينة .

كان طريقنا هو نفس الطريق الذي قطعته مع أحمد باي في ربيع سنة 1836 ، الا أنه أدخلت عليه منذ ذلك الحين اصلاحات كثيرة . وكان هناك على مسافة ست ساعات من غالمة متراس ذوبيوت احتياطية وخيام ، يتسع لعشرة الاف جندي . وكانت غالمة نفسها قد تحولت الى معسكر حصين ، وكانت قبل ذلك عبارة عن اطلال ، وأضيف اليها أيضا عدد من التحصينات . وبعدها بثمانى ساعات وجدنا متراسا آخر يشبه المتراس السابق . وعلى مسافة أربع ساعات من عنابة يوجد المعسكر الكبير الحصين ، معسكر الجنرال يوسف ( كان الفرنسيون قد عينوه بايا لقسنطينة ) ، وكنا قد حاصرنا هذا المعسكر في أيام أحمد باي . وقد أصبحت عنابة الان ، بعد أن أضاف اليها الفرنسيون بنايات أخرى وجملوها ، مدينة صغيرة جميلة جدا .

وتقع عناية في ميناء جيد ، وتوجد بالجانب البري منها دكاكين وبيوت احتياطية ، تسكنها الفرق الفرنسية ، ولها في أحد جوانبها جبل عال محصن ، يمكن أن تنطلق منه القذائف لتصيب المدينة والميناء. وفي الجنوب توجد في سهل خصب على البحر بساتين جميلة. أما في الناحية الغربية فإن الاطلس الشامخ يوصل غاباته السوداء بالمدينة .

وأبحرت مع أحد التجار الى مرسيليا ، فذهبت الى نائب الحاكم العسكري لآخبره بوصولي وأطلب تأشيرة السفر الى الحدود الألمانية ، وبعد أن قرأ أوراقى عدة مرات ، تأملني ، وأعاد قراءتها ، ثم نادى كاتباً في الغرفة المجاورة ، وهمس شيئاً في أذنه ، وأخذ بعد ذلك يتأملني من قمة رأسي الى أخمص قدمي . ولم أتبين وضعي على حقيقته الى أن دخل الغرفة فجأة عدد من الجنود ، وسلمت اليهم مع أوراقى ، فأخذوني الى القيادة العامة .

وهناك استنطقني عدد من الضباط اكثر من مرة وسألوني عما اذا كنت قد جئت من قسنطينة ، وما هي المدة التي قضيتها أسيراً فيها ، وماهي الاعمال التي كنت أقوم بها ، وهل عرفت بروسيا من مدينة ايرفوت ، يدعى شلوصر ، كان مدفعياً عند أحمد باي ؟ فأجبت بأنني كنت قد تعرفت عليه ، ولكنه فر مع احمد باي الى الصحراء .

فتعجبوا من ان مواطني واسمي مطابقان تماماً لوطن واسم ذلك الشخص الذي سألهم الجزائر عنه . فاجبت قائلاً : مع فرق واحد وهواني ادعى جان لوي شلوصر في حين ان مدفعي الباي يدعى فندلين. والحقيقة أنني كنت منذ مدة أخشى أن ينتقم مني الفرنسيون الخمسة عشر ، الذين بنوا بطارية القصبه تحت اشرافي ، ولذلك بدلوا اسمي الشخصي الذي كانوا هم وحدهم يعرفونه بالاسم المقدم للسلطة . لقد ساعدتني هذه الحيلة على حصولي على حريتي .

وكان علي أن أضحك من كل قلبي من التناقضات التي وقعت فيها الجرائد بسببي ، فقد كتبت جريدة عن وجود فندلين شلوصر ، وكتبت أخرى عن وجود جان لوي شلوصر بقسنطينة ، وأكدت جريدة ثالثة أنها علمت من مصدر أكيد أن فندلين المذكور قد فر الى الصحراء قبل سقوط قسنطينة أيها الناس الاعزاء ، لكم أن تبتهجوا لانكم تستطيعون الجلوس في بيوتكم في هدوء وتكتبون للجرائد ، ولكن لا تأخذوا رجلاً مسكيناً ، اذا كان هو الآخر قد مارس الكتابة مثلكم ، لانه يريد في النهاية أن يحظى بالراحة والهدوء .

## الفصل العاشر

### أخبار عن رفقاء المؤلف أيام الحنة .

بعد أن رويت لقرائي أخباري الخاصة ، ولعلي فعلت ذلك بتفصيل أكثر مما كانوا يتوقعون ، أرى من واجبي أن أفي بوعدي للرفاق الذين كانوا معي في الأسر وأذكرهم هنا بصورة مختصرة .

بالإضافة الى بيرنهارد تسابه ، الذي رقي في الفترة الأخيرة الى منصب مدفعي وترك قسنطينة بعد احتلالها وانتقل الى خدمة أحد القواد ، لا أعرف من أسماء زملائي سوى اسم فالك ، الذي ولد في قرية قرب بابنهايم ، واسم بلجيكي ، يدعى آني ، وقد ولد حسب قوله في نواحي لوكسنبورغ ، ثم ميخل ، وأصله من منطقة فولدا ، وفريدريش ايتس الايرفيلدي وبرايشتاين الهامبورغي ، وفاوالتريبي ، ولومر ، وهو من الراين الاسفل ، وصند الدرسدني ، بالإضافة الى فرنسيين ، وهما غايي ويغوا الباريسيين ، وايطالي يدعى بارديني . وكان هناك أيضا شخصان ، لم أعرف اسميهما ، لاننا لم نكن ننادي بعضنا بعضا في قسنطينة الا بالاسماء العربية التي أطلقت علينا ، وكان أحدهما شابا متوسط القامة ، أسود الشعر والعينين ، كانت مهنته الخياطة ، وأصله من مدينة ماينينغن ، وكان قد قطع رأسه عندما حاول الهرب سنة 1833 . أما الآخر فكان عاملا منجميا ، ولد قرب كونغسي بمنطقة تورينغ . كان قد ترك قسنطينة سنة 1834 . ومعه ادوية حضرها بنفسه لبيعها للفلاحين المقيمين حول المدينة . الا ان خبره وصل الى الباي . فأرسل خلفه الجنود وامر بقطع راسه على مسافة ساعة من المدينة ودفع عشرين ريالاً ثمناً لرأسه .

وكان من المفروض أن تقطع الكلاب لحم فالك مثل أنطون غيهارد ، وذلك بسبب فراره من قسنطينة ، ولكن الباى عفا عنه ومات بعد أشهر في قسنطينة جائعا بائسا - واعدم آني كذلك خارج المدينة لمحاولته الهرب . أما ميخل فقد توفي سنة 1834 اثر مرض خطير تسبب فيه فيما قيل الحنين الى الوطن ، ولست أدري كيف تم ذلك .

أما ايتس وبرايتنشتاين فقد أتيح لهما ، بعد ان عانا معنا من البؤس والشقاء ، أن يفرا في آخر الامر الى الجبال مع القبائل ، وبقيت كل محاولات الباى في العثور عليهما بدون نتيجة ولا أستطيع أن أذكر شيئا عن حياتهما بعد ذلك . - كان فاو ولومز قد وصلا الى قسنطينة سنة 1833 ، وحين وجدانا في السجن ، نعيش في شقاء كبير ، وضعا خطة للنجاة من مصير مشابه ، فادعيا أنهما طبيبان ، والاطباء غير معروفين في تلك المنطقة تقريبا ، ونظرا الى أنه لم يستطع احد امتحان معلوماتهم ، فقد أمر الباى باطلاق سراحهما ، وقدم لهما غرفة ليعدا فيها أدويتهم بمساعدة الباى .

وأقبل الناس الى عيادتهما من المدينة وخارجها ، فقد وضعوا ثقتهم في طبيبهما لانهما أوربيان ، ونجحا في معالجتهم لان أمراضهم كانت من النوع الخفيف ، ووجدت فيما بعد حالات عجزا عن معالجتها ، ، فأوشكا أن يقعا في الفخ . كانت قسنطينة مدينة مليئة بالعميان والمشوهين بالولادة ، فلجأ هؤلاء كلهم الى الطبيبين الاوربيين اللذين لم يصرفا أحدا بدعوى أن مرضه لا علاج له ، بل انهما كانا يعدان الناس بالشفاء ويطلبان منهم دفع مبالغ مسبقة ، وحين لم يؤد العلاج الى نتيجة شكوا بهما أولا الى الباشحبا ، ثم الى الباى ، الذي غير بعدئذ رأيه في حسن نيتهما ، فكان عليهما أن يكونا حذيرين الى أبعد حد .

وتزوج لومر فتاة عربية . ومات بعد ذلك فقيرا معدما . أما فاو فقد استمر يمارس مهنته الطبية لمدة طويلة ، وتبناه طالب ، يدعى أحمد بن العابد ، كان له مركزه واحترامه في البايك وعندما جمع ثروة طائلة ، صار قذى في عين الباى فأخذ يطارده الى ان وقع أخيرا في يده ، ونظرا الى أنه لم يكن يحق له أن يقتل الطالب ، فقد جرده من ثروته كلها عقابا له . فاعتزل ابن العابد الناس في فقره ، وآوى في بيته فاو هذا ، وعينه ليكون زوجا لابنته فيما بعد ، فانخذ يعلمه التعاليم الاسلامية ، وظهره ليجعل منه مسلما حقيقيا .

وآثارت هذه العملية سخط الطاغية وجشعه ، فوضع الاسرة كلها تحت المراقبة السرية ثم وقعت حادثة تتعلق بفاو ، فتقرر على أساسها مصير الاسرة . فقد مرضت أم باي سابق



فجأة ، وكانت تعيش في قسنطينة ، فالتجأت الى فاو لانها لم تجد طبيبا آخر . فأعد لها عددا من الادوية ، الا أنها ماتت بعد وقت قصير لسبب ما ، أوربما بسبب هذه الادوية نفسها . وكانت تحمل في العادة عددا من الخواتم النفسية في أصابعها ، وحين أسرع اليها أقاربها ادعوا أن خاتما منها قد فقد ، واتهموا فاو بذلك لانه قضى معها بمفرده عدة أيام . ولكن فاو كان بريئا ، فقد سرق من أصبع الميتة من طرف قريبة لها ! .

غير أن أحمد باي وجد في هذه الحادثة أيضا مناسبة للانتقام من الاسرة المسكيننة ، فأرسل الحرس لالقاء القبض على فاو ، الا أنه أخبر بذلك مسبقا ، فهرب الى الجامع الكبير ، وغادر المدينة بعد أيام . وكان يفر من قرابة الى أخرى ، الى أن نجح في الوصول الى الصحراء ، وهناك آواه عربي غني ، وأتاح له ممارسة عمله من جديد . ولكن الباي علم بمحل اقامته ، ولما لم تكن له سلطة على هذه المنطقة ، فقد راسل ذلك العربي وطلب منه أن يرسل اليه الهارب حيا أو يوجه اليه رأسه مقابل 200 ريال . الا أن هذا العربي ، الذي كانت له طبيعة تختلف عن طبيعة أمته ، لم يفضل أيا من الامرين وانما ساعده على الفرار الى تونس حيث صار يتمتع ، كما علمت من رجال القوافل ، بالسعادة التامة .

وكان لا بد أن يعاقب المربي على ما فعله ابنه ، فقد أمر أحمد بحمله ليلا من بيته ووضعته في السجن ، وافتك من العائلة أثاثها وبقية أموالها ، ووضع أوراقه كلها بين يد لجنة لفحصها ، فلعل بينها مراسلات سرية أجراها مع الفرنسيين . حقا ان خيانتة لم تتأكد ، الا أن أوراقا أخرى خاصة بفاو ومكتوبه بالالمانية قد ظهرت للعيان ، ومن بينها رسالة مختومة ، تحمل عنوان القنصل الانجليزي في تونس . وثار شوق الباي لمعرفة ما تتضمنه تلك الرسالة ، فاستدعاني في الحال وأمرني بقراءتها في حضوره وترجمتها .

كان قد عرف العنوان ، لانه كان مكتوبا بالحروف اللاتنية ، فاستطاع بماليكه ، الذين كانوا يقرؤون ويكتبون اللغة الايطالية ، أن يفهموا كلمتي : قنصل وتونس . وسألني ، وهو يريني الرسالة المفتوحة : «ولكن أية لغة هذه ، فاجبت» لغة المانية فقال : وما هذه اللغة ؟ أهى فرنسية انجليزية ، فلا مندية ، هولندية ، دينماركية ؟ ونطق بهذه الكلمات كلها بصورة غير واضحة ، ولكن بطلاقة تامة ، وكانت تنقصني في تلك اللحظة الكلمة المناسبة ، فلم أستطيع الاجابة الا بالنفي فقال : اذن النمسا . ولم يكن الجزائريون يعرفوننا نحن الالمان الا بهذا الاسم . ولتأكيد ما يدعيه أحضر قطعة نقدية عرفت فيها العملة النمساوية .



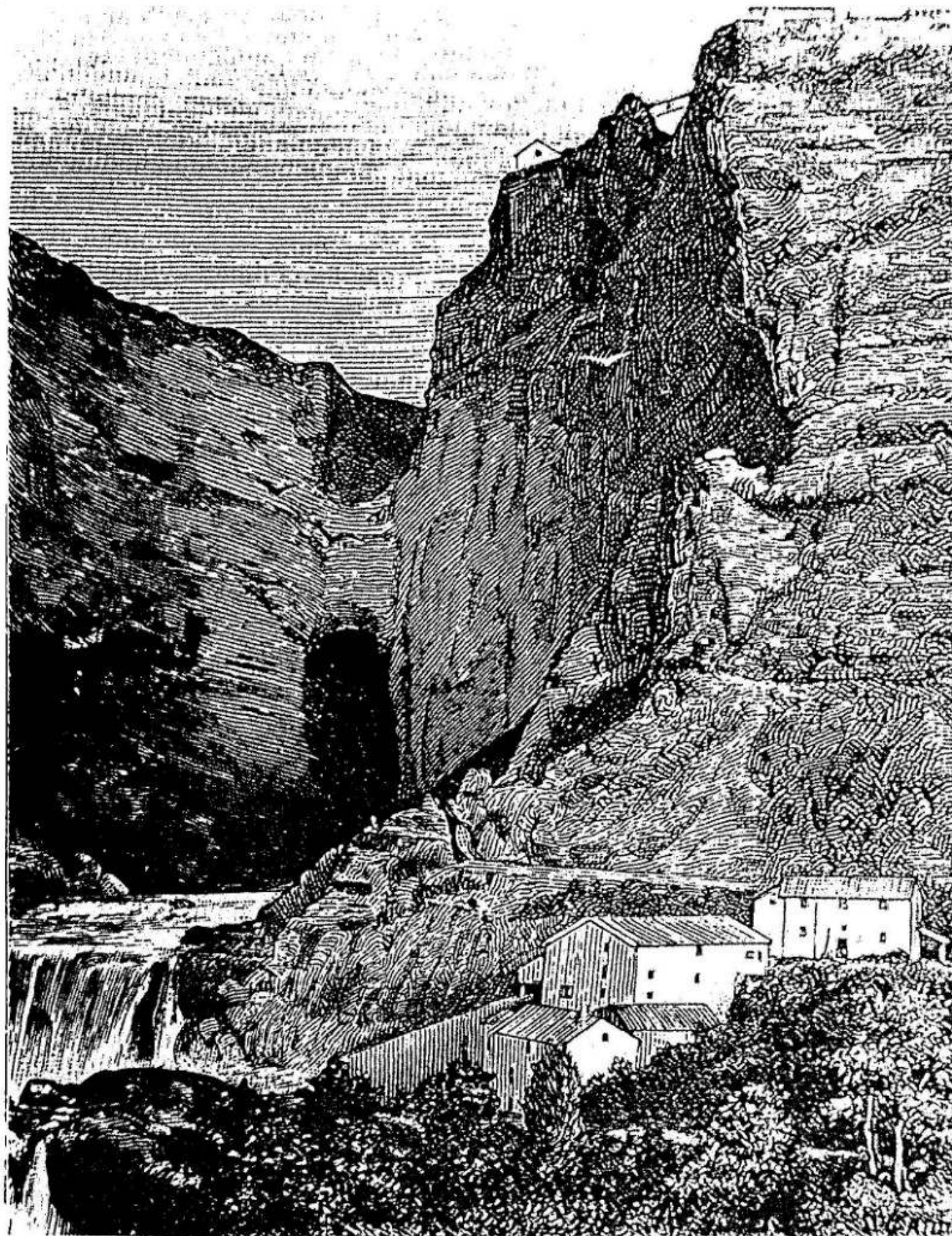
وقرأت الرسالة ، فلم أتمكن من اخفاء فرعي لمحتواها الا بصعوبة : كانت تتضمن طلبه من القنصل الانجليزي الاهتمام به والعمل على اطلاق سراحه ، وبصف فيها بشكل رهيب احمد باي وطغيانه . وقرأت الرسالة عدة مرات وانا افكر في الجواب الذي اجيب به الباي . لم يكن من حقي أن أخبره بالحقيقة ، لانه ، وهو الرجل المتعطش للدماء ، سوف يأمر باعدام أحمد بن العابد في الحين . فادعيت اذا بأن فاو يطلب فيها من القنصل أن يرسل اليه عددا من الادوية . فحرك أحمد باي رأسه ، وعندما أكدت له صحة ذلك عدة مرات ، صدقني في النهاية وصرفني ، الا أن الطالب المسكين أرغم على البقاء في السجن ، الى أن حل الوباء بقسنطينة في السنة التالية ، وأهلك عدة آلاف . وعندئذ أطلق سراح عدد كبير من الاسرى ، وكان من بينهم احمد بن العابد . أما صند فكان قد جاء برفقة سايفرت الى قسنطينة أثناء ظهور الوباء وكانا قد طهرا في الطرق غصبا عنهما من طرف العرب ، وصارا مسلمين وقد وجد صند بعد ارتفاع الوباء مناسبة للتقرب من الباي ، فجعله صانعا للأسلحة ، وكان يجله لذلك ويرى فيه جوهرة لم يملكها أبدا . فقدم له معملا وشيئا من المال ليبدأ عمله . ولم تمض الا فترة قصيرة حتى اشتهر ، وتزوج بعد حين فتاة عربية ، وحين احتل الفرنسيون قسنطينة ترك زوجته وأطفاله فيها وعاد مثلي الى وطنه .

وكان سايفرت قد هرب فيما بين سنتي 1836 و 1837 ونجح في الوصول الى تونس وقد رجع ، حسب ما سمعته فيما بعد . الى وطنه ، أما جالي وبيغو اللذان حملا الينا أسرى سنة 1833 ، فقد أمرهما قائد الدار ذات يوم بالقيام بعمل خاص ، فاغتنما تلك الفرصة للفرار فوصلا الى منطقة مولى الشقفة الجبلية ، وهو قبائلي وجيه واعتقلا هناك ، وبعد أن طرحت عليهما أسئلة كثيرة ، من بينها من أين جاءا وإلى أين يريدان الذهاب ، اعتبرا أسيرين واتخذ قرار بشأن اعادتهما الى قسنطينة وعندئذ ادعيا انهما مسلمان . فطلب منهما القبائل المجتمعون ان يتسما على ذلك ، ثم نزعوا عنهما القيود ، الا انه عليهما أن يثبتا ، وهو أمر كان يعني بالنسبة لهما الحياة أو الموت ، إنهما مطهران .

وكان بيغو مطهرا ، ولذلك لم يتردد في اطلاعهم على ذلك أما جالي فكان لا يزال مسيحيا . وبما انه رفض ان يكشف عن عورته . فقد ارغمه الفلاحون على ذلك . وأخذوا يصرخون بشدة عندما عرفوا الحقيقة . وقالوا لبيغو : امض في سبيلك ! فذهب ولكنه توقف على بعد خطوات ليرى ما سيحدث لرفيقه . فمسك القبائل الحجارة والعصى والأسلحة وهجموا عليه . وأخرج أحدهم مسدسه وأطلق النار فأصابه في جنبه الايمن ، ثم ساروا به حوالي مائة

خطوة وقطعوا رأسه بعد عذاب أليم في أحد الأدغال . وجاءنا رأسه الى قسنطينة ، ووصلتنا كذلك قصة هذه الحادثة المؤلمة ، واستلم القتل المكافحة العادية من البايع .

وكان لومبر ديني شابا شهيدا ، هاديء الطبع ، رضي بمصيره في صبر ، وكان يؤدي الصلاة بصفة مسلما ، فنال لذلك حظوة عند رؤسائنا الذين أوصوا به البايع خيرا ، فعين خادما في بيت من بيوت الممالك ، وكان يتمتع بما يتمتع به هؤلاء ، وكان عليه ، بالاضافة الى تنظيف عذب ذلك البيت ، أن يغسل ممرات غرف الداي ويدعكها ، ويقوم بكثير من الاعمال القذرة قرب هذه البناية . وقبل وصول الفرنسيين أخذ البايع معه الى المعسكر ، وأرغمه على الفرار معه أيضا الى الصحراء . كان في ذلك الحين أعز أصدقائي ، فودعني في حنان وراح يشكولي ، والدموع في عينيه ، من محنته ، وقد حاول بجميع الوسائل الاختفاء في المدينة في انتظار احتلالها ، الذي كنا متأكدين منه . الا أن جواسيس البايع لم يغفلوا عن حراسته لحظة واحدة ، فحتم عليه أن يطيع أوامر سيده ، ولم أسمع عنه بعد ذلك شيئا .



صخرة قسنطينة

## الفصل الحادي عشر

### وصف مدينة قسنطينة ونواحيها .

تقع مدينة قسنطينة - هكذا يسميها التركي ، أما العربي فيدعوها قسطنطينة - فوق صخور وعرة ، تحيط بثلاثة ارباعها ، وفي سفح هذه الصخور يسيل نهر عرضه حوالي 150 قدما ، وعمقه ثلاثة أقدام ، ويطلق عليه الاهالي اسم الوادي الكبير ، ويأتي من الجنوب الشرقي ، ويتصل على مسافة ربع ساعة من المدينة بوادي الرمل ، كما يسميه العرب ، أو وادي البرميل كما يسميه القبائل ، في الزاوية اليمنى ، وتتجه عند زاوية المدينة الجنوبية نحو الشرق ، وهكذا يمر بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية من المدينة بين صخور عظيمة ، يتراوح علوها يمنة ويسرة ما بين أربعة أقدام وستمائة قدم ، وتتباعد عن بعضها في أعاليها بمقدار ثمانمائة قدم ، ويأخذ طريقه بالتالي في الشمال الغربي من المدينة .

ولذلك لا يمكن أن تهاجم مدينة قسنطينة من الناحية الشرقية ، ولها أربعة أبواب ، وهي باب القنطرة ، الذي يقع في الشرق ، ولكنه يتجه نحو الجنوب الغربي ويؤدي اليه فوق هوة الصخور جسر حجري قوي يقوم فوق ثلاثة أقواس ، يقال أن الإسبان قد بنوه قبل مدة طويلة أما الابواب الثلاثة الاخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد ، يبعد الواحد منها عن الاخرى بحوالي 200 خطوة ، فيقع في الناحية الغربية باب الرحبة ، وقد أصبح القسطنطينيون منذ سنة 1836 يطلقون عليها اسم الباب الجديد ، لانه كان في السابق بابا بسيطا ، ولكنه قوس الان بقوس وباب ، وقره بطارية تحتوي على خمسة مدافع .

أما الباب الشرقي ، الذي يدخل الوادي منه ، فهو باب الجابية ، وباب الوسط هو باب الواد . كانت هذه الابواب كلها تتجه نحو الخارج ، بحيث كان في وسع المرء حتى سنة 1836



أن ينظر بعيدا عبر الباب المفتوح ، وبعد أن أطلق عليها الفرنسيون النار بني أمام كل منها قوس كثافته 12 قدما ، فلم يعد من الممكن أن تصيبها القذائف مباشرة . والمدينة مرتفعة في الزاوية الشمالية التي يغادرها منها النهر ، بالنسبة للأرض المنبسطة ، ولكنها أقل علوا في الجنوب الشرقي وأكثر انخفاضا في الجانب الغربي ، وتوجد في جميع جهاتها طرق رديئة بسبب الرمال العميقة . والمدينة محصنة في هذا الجانب بواسطة أربعة حصون ، وأعلى نقطة فيها هي القصبـة .

إذا دخل المرء المدينة من باب القنطرة ، فسيصل أولا على بعد ألف خطوة الى رحبة قطرها ستون خطوة ، وتوجد عن يمينها وفوقها قليلا صخرة ، أقيم فوقها سنة 1836 حصن يحتوي على مدفعين . ومن هذه الرحبة يصعد الشارع نحو الشمال في اتجاه باب القصبـة ، التي تقع الى الشرق منه بمسافة قصيرة . وفي وسط هذا الشارع يقع سوق السلاح ، ويدعى سوق العصر أيضا ، وحتى هنا يمكن أن تمر به العربات ، ولكنه يتجه بعد ذلك نحو الشمال ويصبح عبارة عن زقاق ضيق ، وهناك وعن يساره ثلاثة شوارع تمتد أفقيا ، أحدها يفضي الى باب الماء ، فيؤدي أولا الى سوق العسل ، ثم الى وسط الشارع والمدينة ، ويمر قرب دار الباي القديمة .

والشارع الافقي الثاني يمر عبر الرحبة المذكورة الى يسار سوق السلاح مباشرة ، ثم يتجه نحو باب الجابية ، فيمر أولا قبالة سوق العسل عبر سوق الجلد ، ويمر في وسطه بسوق القمح ويمتد الشارع الثالث من الرحبة على امتداد سور المدينة نحو باب الجابية ، ويحتوي ، مثل قسم من الشارع السابق وهو الواقع فيما بين الباب وسوق القمح ، على عدد كبير من الحمامات العامة والمقاهي . وهذه الشوارع الافقية ترتبط فيما بينها بعدد كبير من الازقة المتقاطعة ، لا أريد أن أذكر منها الا أهمها ، هناك زقاق عريض ملئ ، يمتد من الشارع المذكور أخيرا نحو سوق القمح ، ويمتد من دار الباي القديمة زقاقان هامين في زاوية حادة ويمضيان معا الى باب الماء . والزاوية الواقعة بينهما ، وهي مليئة بالازقة الصغيرة ، تدعى كلها سوق السراجين ، وإذا تطرز فيها السروج وتعد المصنوعات الجلدية الملونة ، وإلى جانب سوق القمح مباشرة توجد دكاكين الحدادين ، وبعدها بقليل حوانيت الاقمشة التي يملكها اليهود . ويوجد هناك حيث يجتمع الزقاقان سوق صغير للخبز ، وخلفه ، في اتجاه باب الماء ، توجد دكاكين العطارين المسلمين .

ولا يجوز أن يحمل في الامكنة التي يمر بها الزقاق قرب دار الباي القديمة ميت أو كفن وهناك زقاق آخر أفقي يمتد من دار الباي القديمة ، ويتجه غربا نحو باب السوق ، أما دار الباي



القديمة فهي مرتبطة بدار الباي الجديدة بواسطة زقاق الحظيرة ، الذي يقع شمال الزقاق . السابق . واذ نحن أخذنا الشارع ، الذي يؤدي من باب القنطرة الى القصبة ، فاننا نجد الى الجانب الايمن ، فيما بينه وبين الصخور المنحدرة ، شارع اليهود ، الذي يربطه بسوق السلاح زقاق ، وفيه يسكن صائغي الذهب والفضة من اليهود ، وهذا السوق ، وكذلك الشارع الممتد حتى باب القنطرة يحتوي على بيوت الاثرياء اليهود . وهناك أخيرا شارع يمتد من القصبة الى باب الرحبة ، ولا يسكنه سوى الخاصة .

وباب القصبة قديم ، وتسندة اربعة أعمدة ، ويوجد فوقه ضلع وعظم منزوع من ركبة إنسان ، ولم أستطيع معرفة ما اذا كان عظما حقيقة أو أنه مصنوع من الحجارة ، لانهما كانا عاليين جدا ، أما الاهالي فكانوا يعتقدون أنهما من بقايا روماني قديم . والقصبة ميدان فسيح ، وهي أكبر من قصبة الجزائر بمقدار النصف ، وتحيط بها عدة بنايات عالية ، يسكنها المفتي . وهناك قوس يؤدي عبر هذه البيوت الى ميدان ثان ، يستطيع المرء منها أن يرى المدينة كلها ، وفيه أقمت بطاريتي ، وتوجد بها فتحة مربعة قطرها 6 أقدام ، يصل المرء منها إلى قبة جميلة محاطة بحجارة مربعة ، قطرها حوالي 80 قدما ، كان يلقي فيها ، ولعلها كانت بثرا في الاصل ، بمن يأمر الباي بخنقهم . أما الباب الذي يدخل المرء منه عبر الصخور ليصل الى المدينة فقد سبق ذكره .

ويحتوي قصر الباي على أربعة أجنحة في مربع مائل ، وقد خصص الخارجيان منها لاسطبلات الخيول ، ويحتويان على أكثرها نبلا ، ويكون الجناح الغربي البلاط والمداخل الوسط الى غرفة الباي ، التي تقام فيها المجالس القضائية ، ويستقبل فيها الاجانب . والغرف الارضية كلها مغطاة بالاجر الاحمر ، وجدرانها مدهونة أو مغلفة بأنواع حجرية محروقة ومطلية بمادة لامعة . أما الغرف العلوية فذات الواح ، وتغطي أرضيتها زرايبي تركية ملونة وجدرانها منجدة .

وتوجد في وسط القصر ثلاث حدائق مربعة مفصولة عن بعضها ، وتربط بينها طرق ، وقد أقيمت حولها آبار محاطة بجدران لريها ، ويحمل اليها الماء ، الذي يجلب بالبغال من خارج القصر ، بواسطة مجار مائية . وفي احداها حوض ، قطرها 10 أقدام ، وهو مصنوع من قطعة من المرمر ، جلب سنة 1835 م من تونس فوق عربة صغيرة . ويحتوي الحوض على قوارة صغيرة . ويحيط بالحدائق رصيف من المرمر ، يتراوح عرضه ما بين 8 و 12 قدما ، وله

أعمدة مرمرية جميلة ، وفيه أبواب تؤدي من جميع الجهات الى القصر ، ولكنها لا تفتح الا من طرف الباى نفسه .

وبجدران القصر المواجهة لهذه الحقائق رسوم وضعها القسطنطينيون ، لا تنم عن موهبة فنية ، ويقال ان هذه الرسوم تمثل مدن الجزائر ، وهران ، عنابة ، وقسنطينة ، والقصر محاط في الخارج بسور من الطين الخام ، ولذلك فالسور تافه جدا . وهناك جناح يمتد الى حد ما نحو سوق العسل ، مزود بنوافذ زجاجية ، وفيه تقع أحب غرفة الى الباى ، يجلس فيها ساعات طويلة ، يتأمل جياده المقابلة له أو المارة من الاهالي .

وعندما نتجه الى خارج المدينة نجد قبالة باب السوق ، تلا عاليا مساحته 300 خطوة عرضا ، و 900 خطوة طولا ، وهو كدية عاتي . وترتبط في الجنوب الغربي بسلسلة صغيرة من الجبال ، ثم تنحدر في اتجاه الجنوب والغرب وتوجد بينه وبين الابواب الثلاثة ساحة كبيرة ، تحيط بها مقبرة . وكان بكدية عاتي عدد من قبور المرابطين الذين ماتوا سنة 1836 م ، واستعملت حجارتها لبناء الحصون ، وعرف بيت مبني على الطريقة الشرقية ، وواقع تحت الكدية ، نفس المصير . ويقال أنه بيت باى سابق ، انجليزي الاصل ، لقي حتفه في تونس بطريقة شنيعة ، وقرب هذا البيت فتحة ، أخذت قسما كبيرا من الساحة .

وفي الزاوية القائمة التي يلتقي عندها الواديان ، توجد خربة رومانية ، تحتوي على ستة أعمدة ، كان الغرض منها اقامة جسر أكثر منه اقامة قناة ، فالضفة الواقعة في اتجاه المدينة أعلى بكثير من الضفة الاخرى . وبين هذه الخربة والوادي الكبير بئر تدعى سيدي ميمون .

ويقع في شرقي المدينة سيدي مبروك فوق هضبة كبيرة ، ويوجد في الشمال تل آخر ، يدعى سيدي عبد القادر . والاراضي الواقعة في الغرب والشمال متنوعة جدا وكثيرة الخصوبة ، وهناك سهل جميل يمتد من المدينة حتى جبال القبائل ، وبه كثير من القرى ، وهو مستغل بصورة جيدة ، وخاصة في المناطق الممتدة على ضفة الوادي الكبير . وتقع مدينة ميلة في المكان الذي يبلغ فيه الوادي الجبال ، وتبعد عن قسنطينة بحوالي ست ساعات تقريبا ، وهي مدينة صغيرة ، تحتوي على 200 مسكن ، تحتل سهلا خصيبا ، ولها حدائق جميلة ، ويزرع فيها العنب بكثرة ، كما ينتج بها أجمل أنواع الكيف ، وبها حمضيات كثيرة ، مثل الليمون والبرتقال ، والبطيخ الجيد ، والرمان الكبير الحجم .

وتوجد في بلاد القبائل طيور كثيرة ، تقيم أعشاشها فوق صخور قسنطينة بصورة خاصة ، ويوجد بها كثير من النسور المرعية ، التي تظهر هنا بكثرة ، وتوجد كذلك طيور أليفة . وتعتبر مدينة

قسنطينة بالاضافة الى العصافير والخطاطيف ، موطن طيور اللقلق . أن أعشاشها فيها لا تكاد  
تحصى في أغلب الاحيان ، ومن عادة اللقلق أن يقيم عشين فوق بيت واحد ، وتأتي هذه  
الطيور في الربيع الى قسنطينة ونواحيها في أعداد تفوق الالف ، وتترك المدينة مع صغارها في  
الخريف ، لتنتقل الى مساكنها في الصحراء . وأهالي قسنطينة يجلون هذه الطيور ، ولا يجرؤن  
على قتل واحد منها . والبأي نفسه من هواة صيد الطيور ، وكان من عادته أن يقف في نافذة  
قصره أو فوق القلعة ليرصد ببندقية الطيور المفترسة الصغيرة منها والكبيرة ، ولكنه كان يحافظ  
على حياة طيور اللقلق .



## الفصل الثاني عشر

القسنطينيون تحت حكم الطاغية احمد باي - القضاء - اصحاب الكرامات  
- ابلعيان - طريقة الزواج - التجارة - العملة النقدية

كان سكان قسنطينة ، الذين بلغ عددهم أيام اقامتي بها ثلاثين ألفا ، خليطا من الترك والعرب والقبائل واليهود ، وكان من بينهم أناس أغنياء جدا ، ولكن الانسان لا يستطيع أن يرى ثروتهم أبدا ، فما من رجل الا ويعرف كيف يخفي أمواله خوفا من جشع الباي ، ويتظاهر بالفقر من خلال ثيابه الرديئة وصناعته الصغيرة . وكثيرا ما كان يحدث للناس ، الذين لم يكونوا يأخذون حذرهم ، أن يعتقلهم الباشحمبا في الليل ويضعهم في مكان شددت عليه الحراسة ثم يأتي الباي ليطلب منهم عدة مرات مبالغ ضخمة ، واعداء أباهم باطلاق سراحهم بعد تسديدها وما يكاد الرجل يصرح بأنه لا يملك شيئا ، حتى يحضر الباشحمبا ليلا برفقة أربعة من اليهود يقومون بخنقه بعد ان يؤدي صلاته ، اذ يربطون خيطا حول عنقه ، ويدخلون عصوين بين الاذن والكتف ، ويدبرون احدهما يمنة والاخرى يسرة الى أن ينقطع نفسه ، ثم تلقى جثته في الليلة نفسها في القبة التي وصفتها آنفا . واذا سأل أحد الفصوليين عن سبب اختفاء الرجل المفاجيء ، كان الجواب : لقد أمر الباي باعتقاله بسبب الخيانة العظمى التي ارتكبها .

وبعدئذ انما الباشحمبا الى بيت المخنوق ، ويكسر الخزانات والصناديق ، بل جدران الغرف أيضا للعثور على المال المخبوء . وبذلك يحرم ابناؤه المساكين من اموال ابيهم ، فيمتنون الشحاذة في المدينة ، دون أن يكون لهم حتى الحق في أن يعلنوا أن أباهم لم يمت ميتة طبيعية واذا استطاعت أسرة ما أن تنقذ جزءا من مالها ، ولوحظ عليها ذلك من طريقة معيشتها ، فانها ستطارد الى أن يقضي على آخر عضو من أعضائها .



وكان يعيش في قسنطينة تركي ثري ووزير من وزراء الباي ، قام بالمحاولة التالية حتى لا يفنق في يوم ما وحتى يتمكن من انقاذ نفسه وماله : لقد ذهب الى أحمد وطلب منه أن يسمح له بالسفر الى مكة ليوقف بعض أمواله على مسجد النبي . فقال الاذن بذلك فحمل كنوزه فوق بغاله ، وأمر ، لكي يتجنب لفت الانظار اليه ، بأن تخرج البغال من باب ، وأسرت من باب ثان وخرج هو نفسه من باب ثالث ، واجتمعوا ثانية على بعد مسافة من المدينة ، ولكن الباي لاحظ أن هذه السفرة الى مكة نهائية ، وأن هذه الثروة الكبيرة ضائعة منه لا محالة ، فأمر الجند ، فركبوا ليلا ، وباغتوا التركي في الطريق وعادوا به اليه ، ولما عرفت الحادثة ، عمل الباي على أن يبعد الفضيحة عنه ، فاعلن في المدينة أن المجرم لم يكن ينوي السفر الى مكة ، وإنما كان ينوي الالتحاق بالفرنسيين . فخنق بكل بساطة وجردت عائلته من مالها ، وأقتسمه الباي والباشحمبا فيما بينهما .

وهناك مثل آخر عن جشع أحمد باي الفظ هو مايلي : في سنة 1833 أمر بضرب سكة جديدة ، وهي قطعة نحاسية في حجم القطعة الفضية ، وكانت لهما نفس القيمة ، فكان له من ورائها طبعاً كسب كبير ، فقد اشترى المراحل القديمة كلها وضرب منها السكة وحرص كذلك على أن يستعيد القطعة الفضية في مقابل القطعة النحاسية .

وبعد أن استعملت هذه العملة الثانية بضعة شهور ، منع استعمالها ، واشترى الرطل من المواطنين باثنتي عشرة قطعة فضية . فالتفق التجار ، الذين كرموا بهذا النوع من العملة ، على مراجعة الباي في ذلك ، وعينوا مواطناً مسناً ليتحدث باسمهم ، فطلب هذا مقابلة الباي ، وقدم له شكواه فتركه الباي يتكلم ، ثم قال له : « من سمح لك بأن تصدر التعليمات لسيدك ؟ لقد أضعت حياتك ! » وأمر بقطع رأسه ، وبأن ينادي مناديه : لقد أعدم بسبب التعليمات التي قدمها لباشاه . وشاهد الاهالي ذلك دون أن يجروا على النطق بكلمة واحدة . ولا نستطيع أن نفهم تطاول رجل واحد على عدد كبير من الناس ، يستطيع كل واحد منهم الانتصار على خصمه ، الا اذا عرفنا أن الباي يستميل اليه ، وذلك في الوقت الذي يعادي فيه الاغنياء والوجهاء ، الالاف من أبناء الطبقة الفقيرة ويتخذهم جواسيس له . وكان من المستحيل القيام بهجوم مفاجيء على الباي ، فقد كان هناك ، بالاضافة الى المماليك والحرس العسكري حرس سري يحيط بالقصر ، ولا يمكن الدخول اليه رغم ما به من أبواب كثيرة ، وكانت الابواب نفسها تحتوي على كوات لاطلاق النار، تتوسطها بنادق تشبه نوع رامبارت عندنا ، بعيدة المدى ، وتتسع لعشر أو اثني عشرة رصاصة ولم يكن الباي نفسه يخرج بدون سلاح ،

فكان يتسلح ، حتى حين ينتقل من جناح من أجنحة القصر الى آخر ، بسيف ومسدسين معبأين ، وكان وزراؤه كلهم يرتعدون أمامه ، ويحاول كل منهم أن يقف في الصباح ، قبل أن ينهض الطاغية ، أمام بابه ، وذلك خوفا من أن يشى به وزير آخر في غيابه .

كان أحد اتباع الباي يشغل منصب قائد في قرية مجاورة ، ويعيش معه في وئام تام ، يدفع له الضرائب ، ويقدم له خدمات صادقة ، كان يرسل فلاحيه ليحاربوا في صفوف جيشه ، ولكنه اشمأز في النهاية من الجرائم التي ارتكبها الباي ضد رعاياه ، وتبين له أن الخضوع للفرنسيين افضل من الخضوع لطاغية من هذا النوع . ولذلك أخذ يرسل سرا المقدم يوسف الذي كان قد خدم مملوكا في قسنطينة ، وذات يوم وجه مع أحد فلاحيه رسالة الى أحمد باي ، ورسالة أخرى مع الرجل نفسه الى المقدم يوسف ، يحملها اليه في الليل عبر الحدود خفية .

ولم يأخذ الفلاح حذره ، فقد وضع الرسالة في جراب من جلد الماعز ، وذهب أولا الى الباي ، وحين أمر بالدخول ، ترك الجراب تأدبا فوق مقعد بالمر ، يجلس عليه عادة الحرس السري . وفي أثناء ذلك جاء كلب من كلاب الباي ، وأخذ الجراب وراح يسحبه في ساحة القصر كلها ، فتمزق ، ووقعت منه الاوراق التي كانت به ، ومن بينها الرسالة الموجهة الى المقدم يوسف . فرفعت وسلمت الى المملوك الاول ، الذي سلمها بدوره الى الباي . وكم كانت دهشته شديدة عندما رأى عنوان ألد أعدائه ! .

وفتح الباي الرسالة ، وقرأها ، وأمر بوضع الرسول في السجن ، ثم كتب رسالة لطيفة الى القائد ، طلب منه فيها أن يزوره مرة أخرى . وجاء القائد ، دون أن يخشى أي مكروه ، فاستقبله بلطف كعادته ، وجلسوا الى مائدة الطعام ، وفي أثناء الاكل أخرج الباي الرسالة فجأة وسأله : هل تعرف هذه الرسالة ؟ أصفر وجه القائد وعجز عن الكلام . وعندئذ اشتد غضب الباي ، فأمر أن يفتح فمه ، وأخرج مسدسا وأطلق النار في فمه بالذات . وفقد بقية الضيوف طبعاً شهيتهم ، ولكن نظرة واحدة من الطاغية جعلتهم يواصلون الاكل !

وكما يكن الرجل تكون قوانينه ! من حق الرجل المسلم أن يتناول جميع المشروبات ولا يستثني منها الا الخمر ، ومع ذلك فقد كان شرب العرق ويبيعه ممنوعا باتا في أيام أحمد الباي ، واذا ضبط مسلم وهو يتناوله ، فانه يتلقى خمسمائة ضربة بالعصا في رجليه . وقد أعدم يهودي ، لانه كان يبيع العرق . وكنت قد حضرت بنفسي ثلاثة اعدامات من هذا النوع ،

ولكم افترضني تلك القسوة . - كان أحد المسلمين جالسا ذات يوم يشرب العرق في بيت يهودي فدخل رجلان الى البيت فجأة ، وأخذا يصرخان ، لانهما وجداه سكران ، فاجتمع حشد كبير من الناس ، والقي القبض على المسلم واليهودي معا وحملا تحت الدفع والضرب وأوقفا أمام نافذة الباي . وسألهم ، ما شأنهم مع اليهودي ، فانطلقت ألف حنجرة تروي له ما حدث وعندئذ قال : « اضربوا المسلم بالفلقة ، واقطعوا رأس الكافر في الحال ! » .

وكان اليوم يوم سبت ، فأسرع اليهود كلهم اليه ، وعرضوا عليه 20 ألف ريال من أجل تأجيل اعدام المحكوم عليه الى اليوم الثاني ، ولكن أحمد لم يتراجع في كلمته وحملت الشبيبة التي اعتبرت ذلك عيدا بالنسبة لها ، حملت المسكين الى ساحة الاعدام أمام المدينة . وهناك ربطت يده ورجلاه ، وبعد أن طرح أرضا ، جمع الروث الجاف والاشواك ونباتات الحسك ، وكومت فوقه ، ثم أشعلت فيها النار . وبدأ الشقي يشوى شيئا فشيئا ، وبما أنه كان يتحرك من شدة الالم ، ولم يكن في وسعهم أن يمسكوه بسبب النار ، فقد جلبوا عصيا طويلة وأخذوا يدفعونه هنا وهناك ، ولم يمت الا بعد ساعة ، وكانت النار تزود بالانخشاب الى أن اختفى آخر أثر لجسده .

وكان اليهود بصورة عامة محتقرين في قسنطينة ، فكان اليهودي يعامل معاملة العبد ، فاذا احتاج الباي الى المال فانه يطلبه من اليهود ، وحين يكون لشخص ما عمل لا يليق به ، فانه يأخذ اليهودي ليقوم بذلك العمل . واذا وصلت مثلا الرؤوس المقطوعة الى المدينة وأصابها الفساد لبعد مسافة النقل ، وشدة حرارة الشمس ، فان اليهود يأخذون من بيوتهم ودكاكينهم ، ويعطي لكل واحد منهم رأسان ، يطوف بهما في المدينة ، ثم يحملها الى الرحبة ، وان امتنعوا عن ذلك فانهم يتعرضون لاهانات مختلفة .

ويعاقب على السرقة بقطع اليد ولو كان السارق مسلما ، وقد رأيت طفلا ، قطعت يده اليمنى ، لانه سرق مهمازا من دكان تاجر . ووصل قبائليان الى قسنطينة لشراء بعض البضائع فأحضرا معهما نقودا مزيفة ، فقطعت يدهما ، وطيف بهما في المدينة ، وحول عنقهما حبل ثم أطلق سراحهما . وليس السياف هو الذي يتولى قطع اليد ، وانما يتولى قطعها الحفاف ، الذي يلعب في الجزائر دور الطبيب ، وينهب الناس بخز عبلاته . وقد جرت العادة أن يجلس الاشقياء فوق مقعد ، فيغلي الحفاف القار في طاس ، ثم يمسك اليد اليمنى ويقطعها بموسى الحلاقة من المفصل ، ثم يغمس الذراع في القار الحار لاييقاف الدماء

وهناك جرائم يعاقب عليها بالعصا ، وتتراوح العقاب بين مائتين وألف ضربة ، ويوضع المذنب عادة فوق الأرض ، ويربط الى خشبة طولها ستة اقدام ، وتدخل القدمان في الحبليين ، وترفعان بصورة عمودية ، ثم يضرب باطن القدمين أو المؤخرة ، وقد رأيت العرب ، الذين تلقوا بهذه الطريقة خمسمائة ضربة ، يسرون رغم ذلك مستقيمين . ولا يعفى الجنس اللطيف من هذا العقاب ، فاذا فوجئت زوجة وهي في طريق الغواية ، فان القناع ينزع عن وجهها ، ويطاف بها في المدينة عدة مرات ، وشعرها مرسل ، ثم يلتقى بها من فوق الصخور على ارتفاع ستمائة قدم ، ومن حق أقاربها أن يجمعوا عظامها المكسورة ويدفنها !

ان هذه الصرامة الشرعية تجعل القسطنطيني يحترس ما أمكنه الاحتراس ويتجنب رفع قضيته الى القضاء . فاذا حدثت معركة كلامية أو وقع عراك وخصام ، فان أول القادمين يحاول الفصل في قضية المتنازعين وإعادة الامور الى نصابها ، ويخاطبهم عادة بقوله : هل أنتم يهود أو مسيحيون حتى يتعذر عليكم أن تتصالحوا فيما بينكم؟ ويكون جوابهم في العادة : لعنة الله على الكفار . نحن مسلمون واخوة ! وبذلك ينتهي النزاع ( وهذه فضيلة نتمنى أن تعمل بها أروبا المسيحية ) ، أما اذا امتنع الطرفان عن تسوية النزاع ، فانهما يذهبان الى مولى البلاد ، فيستمع لهما خلال ساعة من الزمان ويصدر الحكم من غير أن يمسك بالقلم ، وتمثل الحكم في أن يتلقى الاثنان أو أحدهما فقط عددا من الضربات ، وينفذ الحكم في الحال في غرفة القائد .

وحين تقع حادثة ، ينتج عنها موت أحد الطرفين ، فان المدعي والمدعى عليه يذهبان الى الباي ، وبعد مرور ربع ساعة ينادي الداعي بأن هذا أو ذاك قد حكم عليه بالاعدام ، الا أن المذنب في مثل هذه الحالة لا ينتظر عادة الى أن توجه اليه التهمة ، وانما يلتجئ الى جامع المفتي ، لان الباي لا يستطيع اخراجه منه ، رغم ما له من سلطان ، ويقدم له الطعام من طرف أهله أو من طرف المفتي . وبعد أيام يذهب المفتي الى الباي ، ويتوسل اليه أن يعفو عنه ، واذا رفض الباي ذلك ، فانه يساعده بجميع الوسائل حتى ينجو بنفسه من السجن ويفر من الجواسيس الذين يحيطون بالجامع . أما في أثناء الليل فيتمتع بالامن التام تقريبا ، فالعربي لا يحب ترك بيته في الليل ، وقبل أن يطلع النهار يكون قد وصل الى جامع آخر ، ويظل ينتقل هكذا من جامع الى آخر الى أن ينجو بنفسه في النهاية .

والواقع أن الدين هو القوة الروحية الوحيدة ، التي تتمثل في المراتب ، والتي تحد بالتالي من حب المسلم للسيطرة . ويوجد في الجزائر نوعان من المراتبين ، ويمثل النوع الاول أصحاب



المساجد ، الذين تعلموا القرآن ، فصاروا يعرفون القراءة والكتابة ، ويعلمون الاطفال . أما النوع الثاني فيمثلهم رجال دراويش ، يظلون في الهواء الطلق ليلا ونهارا كيفما كانت الاحوال الجوية ، ويحيون على طريقتهم الخاصة حياة صالحة ، فهم لا يأخذون المال ولا الهدايا ، وتقدم لهم الدولة سنويا لباسهم ، الذي يتكون من برنس وقندورة واذا شعروا بالجوع فانهم يطرقون أول باب يجابههم ، دون أن يجروا أحد على ردهم ، وهم بالمناسبة اوسخ من رايت في حياتي ، اذ انهم لا يغتسلون ولا يحلقون وجوههم ولا يمشطون شعورهم ، وليس هناك ما هو أبعث على القرف من شعورهم الكثيفة الطويلة فوق رؤوسهم العارية أبدا .

ويعتقد الشعب هناك أن لهم صلة ما بالله وأنهم لذلك أصحاب كرامات ، ويستشيرهم الجنس اللطيف بصورة خاصة في كل ما يتعلق بالامراض الجنسية والحمل ، وفي كل مرة يعدونهم بأنهم سيطلبون ذلك من الله في المناسبة القادمة . وحين انتشر الوباء في قسنطينة سنة 1834 حاول أصحاب الكرامات أن يقنعوا الشعب بأن هذا الوباء ليس في الحقيقة سوى حشد من المسيحيين ، الذين يحومون في الجو بصورة غير منظورة بقصد تسميم المدينة . ورغم ما في هذا الادعاء من غرابة ، فقد صدقه الشعب ، وخرج هؤلاء السذج في موكب كبير يطوفون بالمدينة وبايديهم عصي طويلة ، راحوا يلوحون بها في اتجاه الكفار غير المرتين ، ويصبحون ويعوجون ويقومون بحركات كالمجانين ، وبعد أيام خف الوباء حقيقة ، فاصبح ايمان الناس بكراماتهم بلا حدود .

وكننت في سنة 1835 قد شاهدت منظرا غريبا : كان أحد هؤلاء المرابطين يجري ويصرخ ويبيكي ويضرب كل من مر به بالحجارة ، وكان من حوله يبكون معه ، لانهم اعتبروا بكاءه علامة على الحرب الكبيرة القادمة . وهذا بعد ساعات ، وأكل ثم قال : ان الكفار سيحاربون مدينتنا ، ولكن الله ورسوله سيحميانها منهم .

ولا يجروا غير هؤلاء الاولياء ، أصحاب الكرامات على ازعاج الباي أثناء فترة الظهيرة ، وكثيرا ما كنت أسمعهم في هذه الساعة يصرخون ويزمجرون في القصر ، ولم يجروا أي حارس على طردهم ، مع أن أدنى حركة كانت تسبب لصاحبها الموت ، فقد كان الباي يخشى أن يدعوا عليه ، فيصاب بالعمى ، وهم لا يسيرون الشارع بمفردهم أبدا ، وانما يطلبون ممن يمر بهم بعد أن يكونوا قد قضوا وقتا طويلا جالسين في أحد الامكنة ، أن يقدم لهم يده ، ويرافقهم لى مكان آخر ، يريدون الجلوس فيه . وكثيرا ما يجد المرء النساء مشغولات حولهم ، لانهن يعتبرن نزع القمل الكثير عنهم بمثابة سعادة كبيرة ، ذلك أن هؤلاء المرابطين أمزجة خاصة ،



ولا يمكن المرأ أن يعرف ما إذا كان هذا الذي يتزعه عنهم لا يتحول في أيديهم إلى حبات ذهبية !

ولهذا الجنون علاقة بالخرافة التالية ، التي أريد أن اختتم بها وصف هؤلاء الاولياء الكسالى غالبا ما كنت أتحدث مع عدد كبير من أهالي قسنطينة عن نظافة الاروبيين الفائقة بالنسبة للافريقيين وأقول لهم ان المرء لا يكاد يعثر في أوربا حتى على الحشرات ، وخاصة القمل ، الذي يعاني منه كل افريقي ، ولكنهم ضحكوا من بلادتي ، وكانوا يذكرونني في كل مرة بقصة الحمامتين : فقد أرسل الله في غابر الازمان حمامتين احدهما تحمل رملا ذهبيا ، والاخرى قملا ، وقال للتي تحمل الذهب : طيري أنت فوق الاراضي الاسلامية وبعثري الذهب ، وقال للتي تحمل القمل طيري فوق اراضي المسيحيين وبعثري القمل . وطارت الحمامتان معا واخطأتا في الطريق ، وهكذا تلقى المسيحيون ما للمسلمين فعاقبهما الله بالسواد ، فنشأت الغربان .

وللمسلمين مثلنا يوم مبارك في الاسبوع ، وهو يوم الجمعة ويسمونه نهار الجمعة ، ولكنني لم أجد فرقا بينه وبين الايام الاخرى ، فالناس يذهبون كالعادة لاداء الصلاة ، ويمارسون أعمالهم. أما أعيادهم فلا أريد أن أتحدث هنا الا عن الاعياد الثلاثة المهمة وأكبرها هو العيد الصغير ، الذي يسبقه شهر الصيام . فبمجرد رؤية الهلال يعلن عن بداية الصيام بطلقة مدفع ، ويبدأ الامساك في الثالثة صباحا بعد صلاة الفجر ، فينقطعون عن الاكل والشرب ، ولا يضعون الماء في أفواههم عند الغسل ، ولا يدخنون ولا يستعملون السعوط ويتحرزون من شم الورد ، وكثيرا ما يرفض المريض تناول الدواء ، واذا ارغمهم المرض على الافطار ، فانهم يصومون تلك الايام فيما بعد . وفي الساعة السادسة مساء يعلن عن الافطار بطلقة مدفع أيضا ، ويستطيع المرء أن يرى بعد الخامسة رجلا أمامه نارجيلة مشتعلة ، وآخر في يده علبة سعوط مفتوحة ، وثالثا يمسك بقطعة خبز ، ويرى بعضهم واقفين في الشارع ، ينتظرون طلقة المدفع والاذان . وبما أنهم يمانون كثيرا من الجوع أثناء النهار ، فانهم يأكلون كثيرا في الليل ، فتضطربهم التخممة الى الافطار في اليوم التالي لاسباب صحية . وكان علينا نحن الاسرى أن نصوم أيضا ، ولكننا كنا نحرم من مشاركتهم في الاكل . وقد حدث لي ذات يوم أنني لم أستطع أثناء العمل منع نفسي من وضع قطعة خبز في فمي ، فضبطت أثناء ذلك ، وثار ضجة كبيرة حولي ، الى درجة أنني اعتبرت نفسي ميتا لا محالة ، الا أن الصائمين اعتبروا ذلك خطأ ناتجا عن جهلي ، فنجوت من القتل ولكنني ضربت ودفعت .

وتعم الفرحة برؤية الهلال ثانية ، فيقبل الحضر والفلاحون ، أصدقاء وغرباء ، بعضهم بعضا في الرأس أو في الكتف اليمنى ويتبادلون التهاني . وينظم الباي ليلة العيد حفلة عشاء ، تعزف خلالها الموسيقى ، وفي يوم العيد يستطيع كل انسان أن يدخل القصر ليتمنى لسيدة الباي عيداً سعيداً . وفي حوالي التاسعة صباحاً يركب الباي جواده ويترك المدينة برفقة مماليكه وبصحبة أعيان المدينة والفلاحين ، ودقات الطبول تتعالى ، وتتبعه أجود خيوله وبغاله وفوق ظهورها السروج والاعطية المطرزة . ويحيط بموكبه عدد كبير من الاهالي ، شيوخا وشبابا ، راكبين وراجلين ، والخيول كلها مزينة بسجادات جميلة ، وتطلق سبع طلقات نارية تحية للباي عند دخوله المدينة وخروجه منها .

ويجلس الباي خارج المدينة فوق مخدة في رجة ، وبدأ سباق الخيل الذي تصاحبه انغام الموسيقى ، ويمر كل قائد مع فرقته أمام الباي ، ويطلقون النار كلهم ، وما من مرة الا ويتسبب ذلك في وقوع ضحايا ، لا يقام لهم أي وزن ، وبعد ذلك يوزع الباي الهدايا على خدامه وحراسه ، ويقدم الجوائز لاهسن الفرسان . أما الاطفال فتقام لهم أراجيح ونخيام ، يتناولون فيها عصير الليمون والبرتقال مجاناً . وتستمر التسلية حتى الثانية عشرة يعود بعدها الباي الى المدينة ، ويتناول كل واحد طعامه في بيته ، ويصدر عادة الغفوعن الاسرى الذين شفع فيهم .

وبعد هذا العيد ، الذي يدوم ثلاثة أيام ، يأتي العيد الكبير ، ويحتفل به بالطريقة نفسها الا أن على رب العائلة أن يذبح لكل فرد ذكر من أفراد عائلته خروفاً ويؤكل اللحم مدة ثلاثة أيام بكاملها .

والمولد النبوي عيد كبير بالنسبة للاطفال ، فالمدارس كلها مزينة بالاعلام والازهار ، ويقف التلاميذ أمامها ، وبأيديهم مسدسات ، يسددونها نحو كل مار ، فيدفع لهم النقود هدية وإذا كان الماريهوديا ، أو يهودية ، فعليه أن ينزع حذاءه ويغني . ويعترض الاطفال طريق المارة ويرشون وجوههم بالماء المعطر ، وينتظرون منهم أيضاً أن يقدموا لهم هدية ، وتوجد بقسنطينة مدارس كثيرة ، ولذلك فمن المستحيل أن يمر المرء في هذا اليوم بشارع من الشوارع دون أن يتوقف .

ومن الأعياد الدينية انتقل الآن الى الزواج . فاذا أراد شاب أن يتزوج ، فإنه لا يستطيع أبداً أن يقيم علاقة شخصية مع فتاة ، لانه لا يجد وسيلة لدخول بيت الاسرة ، وحين يسمع أن لهذا الرجل أو ذاك فتاة في سن الزواج ، يرسل يهودية الى بيتها فاذا كانت تريده ، فإنه يتوجه الى ابيها ، ويتفق معه على المهر الذي يريد أن يقدمه للفتاة ، ويتراوح عادة بين 75 و

100 ريال ، ويقدم هذا المال للفتاة عن طريق أبيها . وفي يوم محدد يذهب الأب مع ابنته والعريس الى القاضي فيكتب هذا الأخير اسميهما ، ويتقاضى على ذلك ربالاً واحداً كرسوم ، فيتم العقد . وتشتري العروس بالثمن لباسها وتبتاع ما تحتاجه اليه من الاثاث والأدوات ، التي تحملها الى العريس يوم الزواج .

وفي المساء يأتي كل أقرباء العريس أمام بيت العروس وبأيديهم الفوانس ، وعندئذ تجلس وهي ترتدى رداء يلتمع بالذهب ، وهو ملك للمدينة ، يعار مقابل مبلغ من المال في خزانة مغطاة بإزار أحمر ، وتحمل فوق بغل الى بيت زوجها وتصاحبها الموسيقى ، وتنتهي الحفلة كلها بوليمة . وتصبح الزوجة منذ تلك اللحظة خاضعة لاوامر زوجها المباشرة المرأة الملابس الصغيرة ، أما الملابس الكبيرة فيغسلها الرجل ، أو يقدمها لمن يغسلها ، وفي العيدين يسمح للنساء بالترهة ، فيجتمعن خارج المدينة ، ويحضرن تسليات الرجال محتجبات فلا يرى الاجنبي من المرأة غير عينها . وحياة النساء وأعمالهن في المدينة تختلف عن حياة النساء في البادية ، وسأتحدث عنهن في مكان آخر .

وكانت قسنطينة ، فيما يقوله أهاليها ، مركزاً تجارياً هاماً في السابق ، وذلك لموقعها بين الجزائر وعنابة وتونس ، وكانت في السنتين الاوليين من أسرى لا تزال تستقبل كثيراً من الاخشاب والثمار والمنتجات الاخرى في أسواقها . وكان تليس القمح يباع في نفس الوقت بريالين ، وتباع البقرة السمينة بأربعة ريالات ، الا أن الوضع تغير منذ أن احتل الفرنسيون القسم الاكبر من منطقة عنابة ، ومنذ أن أصبح الفلاحون يبيعون بضائعهم لهم بأسعار أنسب ، وهكذا صار القمح يباع بـ 14 ريالاً عوض ريالين وتباع البقرة بأربعين ريالاً عوض 14 ريالاً ، مما اضطر الباي الى أن يوزع على الفقراء القمح والخبز والاعنام أكثر من مرة . واستمر هذا الغلاء الى سنة 1837 م .

ويوجد بقسنطينة عدد كبير من أصحاب الحرف ، ولا سيما الحدادون . بالاضافة الى السمكاريين والنحاسيين ، والنجارين الماهرين ، وصانعي السيور ، والخياطين الماهرين الذين يظهرون مهارة كبيرة في التطريز بالذهب والفضة والحريز ، وكذلك صانعي السلال ، وعدد كبير من النساجين ، الا أن هؤلاء لا يصنعون سوى الاقمشة الصوفية كالسراويل والسترات الخاصة بالطبقات الفقيرة . ويحتكر اليهود الاعمال المتعلقة بالذهب والفضة . وهناك أيضاً عدد غير قليل من الدباغين والخبازين .

وفي مستطيه أربع طاحونات ، تديرها المخیل والبغال ، وفي خارج المدينة توجد بالغرب  
منها رحوان مائتان . والسكة التي أمر أحمد باي بضربها هي السلطاني ذو الـ 5 ريالات ونصف  
السلطاني ذو الـ 2،5 ريال ( عادة ريال واحد ) .

ثم الريال وقيمته 8 ثمن صاع ، وثمان صاع بـ 6 ياره ، واليارة بـ 5 قطع نقدية خفيفة  
وعلى هذا فقيمتها حسب قطعنا ما يلي : ثمن صاع يساوي قرشين فضيين ونصفا ، والريال  
عشرين فضيا والسلطاني 3 تالير وعشرة قروش فضية ، ونصف السلطاني تالير واحد وعشرين  
قرشا فضيا .

## الفصل الثالث عشر

### معيشة العرب وتجهيزاتهم المنزلية

العربي بدوي متنقل ، فقطعانه ترغمه على تغيير مسكنه ، والبدو يعيشون مجتمعين فيما بين 50 و 100 خيمة يطلق عليها مجموعة اسم الدوار . وأكبرهم هو شيخ الدوار ، وهو الذي ينظم أمورهم التجارية ، ويخضعون لأوامره عن طيبة خاطر ، ويكون عددا من الدواوير بلادا يحكمها قائد .

وإذا انتهى العربي من حرق نباتات الزوآن والحسد في الأرض المحددة للزراعة في شهري سبتمبر وأكتوبر ويناير وحرث الأرض ، فإنه يكل ذلك الى الله ، ويحمل خيامه وأدواته فوق البغال ويرحل بقطعانه ، التي تسوقها النساء . أما هو فيركب حصانه ، ويحرس الموكب ، والبندقية تعترض ظهره . حين يجد الماء والكلاً في مكان قريب ، يتوقف ويضرب خيامه . وكثيرا ما يحدث أن تلتقي دواوير كثير في مجتمع واحد وهم لا يحتملون بعضهم بعضا ، على غرار ما كان بين ابراهيم ولوط ، بل تقوم بينهم معارك دموية .

وتوضع الخيام علامة على الملكية دون أن تضرب ، ويتولى حراستها النساء والصبيان وعندما تعطى الإشارة يثب المتخاصمون فوق خيولهم ، وينطلقون جماعات صغيرة بينادق معبأة او يهاجمون خصومهم ، ويطلقون النار ثم يعودون ليعبثوا بنادقهم من جديد ، فاذا سقط من أحد الطرفين عدد من الرجال ، فإنه يحمل خيامه وينسحب ببطء . ويطارده خصمه مسافة ثم يضرب خيامه في أرض المعركة بصفته منتصرا .



ويستقل الدوار بهذه الصورة من مرعى الى آخر الى أن يحصد الزرع ، الذي تركه في  
البحريف ، في نهاية ماي وبداية يونيه ، وعندئذ يحصده الرجال بالمناجل ويضرب عمود في  
الارض ، ويوضع حوله القمح او سنابل الشعير ، ثم تدوسها خمسة او ستة بغال بأقدامها .  
وبعدئذ تصفى الحبوب بالمذراة ، وتحفظ خارج الدوار في مطامير تشبه الاقباء . ويستعملون في  
الامكنة التي لا توجد بها طاحونات مائية مطحنة يدوية وهي عبارة عن حجرين مستديرين  
تصل بينهما خشبة مثلما هو الامر في الطاحونات الكبيرة ، الا أنها أصغر منها . ويدار الحجر  
الاعلى بواسطة مقبض خشبي . في حين يضل الحجر الاسفل ثابت في مكانه وهكذا تطحن  
الحبوب التي تلقى عن طريق فتحة في الحجر الاعلى . ويقوم العرب بهذا العمل يضع ساعات  
في اليوم ليعدوا ما يلزم يوميا من الدقيق ، اما غربلة الطحين فترك للنساء .

وبعد جمع الغلال يضع العربي قسما من غلته في كيسين ، ويذهب لبيعها في السوق .  
ويدفع من المال الذي أخذه ضريبة لحكومته . ويضم الباقي الى ما سبق له أن ادخره في قدر  
ويدفنه في مكان سري ، لا يطلع عليه حتى زوجته وأطفاله ، وهكذا يبقى له ماله إن اغار  
عليه عدوه وسلبه ادواته المنزلية وزوجته وأطفاله .

وكثيرا ماتقع في الاسواق مشاجرات كبيرة بين سكان الدواوير المختلفة لاسباب تافهة .  
ليس من النادر أن تتحول الى حرب رسمية . وللحيلولة دون ذلك يأتي الى السوق عدد من  
القواد ومرابط . ليفصلوا في المنازعات التجارية بصورة حاسمة ، ويعاقبوا بالضرب أو بالموت  
أيضا . وتتكون تجارة العرب من الغلال والماشية والصوف ، ويأخذون بدلها من القبائل زيت  
الزيتون والتبن والبندق والبارود .

ولا يترك العربي مكان الحصاد قبل الربيع القادم . وفي نوفمبر أو قبله بقليل ، يحفر قبل  
موسم المطر خندقا حول خيمته ، ويقيم أمامه حواجز طينية وحجرية ليحمي نفسه من الفيضانات .  
أما قطعانه فيترك أمر سوقها الى المرعى لنسائه وأطفاله ، وفيه تجد الكلاب في هذه الفترة أيضا .  
ولا يعرف عن قضية جمع التبن الا القليل أو هو لا يعرفه اطلاقا . وينام هو نفسه أغلب أوقات  
النهار . وعندما تظهر الشمس قليلا عند الظهيرة ، فانه يجلس خارج القرية مع الجماعة  
ويتحدث معهم عن تربية الماشية أو عن الفرنسيين وعن باي قسنطينة أيضا ، فهو يخشاه كثيرا .

أما أولئك العرب الخاضعون للباي ، فانهم يعيشون الى حد ما في سلام مع بعضهم  
بعض ، وأما الأحرار فهم في الغالب قطاع طرق ، يستغلون الشتاء ليقوم بعضهم بالهجوم على  
البعض الآخر في الطرق المنعزلة ، وسلبونه وقد يقتلونه أيضا وهم ماهرون في السرقة بصورة

خاصة . فالعربي لا يدخل الى خيمته غير ماشيته ، أما خيله ويغاله فيربطها الى أعمدة بالجبال أو السلاسل في أرجلها ، ولذلك فإن السراق يتسللون ليلا على أربع ، ويفكون القيود عن الحيوانات دون أن ينتبه اليهم السيد وكلابه ، ويمتطونها ويفرون بها ، ولديهم كذلك مهارة في العثور على مطامير جيرانهم ! .

ويتم نظام العربي اليومي على الصورة التالية : يستيقظ عادة في الثالثة صباحا ، وغرف الماء ، وهو جالس فوق الأرض ، بيده اليمنى - فاليسرى تعتبر غير طاهرة ويصبه في يده اليسرى ، ويغسل يديه أولا ، ثم يعزف مرة أخرى باليمنى ويمضمض فمه ثلاث مرات ، ويستنشق ثلاث مرات كذلك ، ويغسل وجهه ثلاثا ، ويبل يديه ثانية بنفس الطريقة ، ويدخل ابهاميه في أذنيه ، ويمرر راحة يديه من أول جبينه الى مؤخرة رأسه ثلاث مرات . وبعد ذلك يصب الماء باليمنى في اليسرى ، ويغسل ذراعه اليمنى من يده الى مرفقه ، وتقوم اليمنى بنفس العمل بالنسبة لليسرى ، ويمسح رأسه من مقدمه الى قفاء ويرد المسح الى مقدمه ، ويمسح ظاهر اذنيه وباطنهما ، ثم يؤدي الصلاة واقفا ويداه متشابكتان فوق صدره ، ويركع ويسجد عدة مرات . وليس للبدو مساجد ، فهم يؤدون الصلاة جماعة في الهواء الطلق . ويجب أن يكون المكان الذي تؤدي فيه الصلاة طاهرا ، ولا يجوز أن ينجس . ويصلون أيضا مثل جميع المسلمين ، في اتجاه القبلة ، ولا يجوز للمتزوج أن يصلي الا بعد أن يغتسل في حين أن الأعزب يستطيع أن يتوضأ او يتيمم ، عند انعدام الماء وقل تلطيخ بالدم أو النجاسة يجعل الصلاة غير ممكنة ، وإذا اضطر لترك الصلاة بسبب المرض أو انعدام الماء فإن عليه تعويضها .

وبعد الصلاة ينام حتى حوالى العاشرة . فينهض ويتناول فطوره ، ويتكون الفطور من كسرة تطبخ في الطاجين ، والأغنياء يعدونها من دقيق القمح وياكلونها مع الزبدة ، أما الفقراء فيطبخون كسرة الشعير وياكلونها بزيت الزيتون ، ويشربون معه اللبن ، وياكلون الثمر أو التين الجاف ، وبعد ذلك يقام بعمل صغير ، فيبرم مثلا حبلا من الحلفاء ، بعد أن يدقها بمطرقة خشبية ، وهذه الحبال قوية جدا ، مادامت جديدة وخضراء . وهي تحل محل الحبال القنينة ، ويرى المرء خارج أبواب قسنطينة عدد من العميان وذوى العاهات خاصة يبرمون هذه الحبال وهم يصفرون ويغنون ، أو يصنعون شباكا كبيرة لجلب العلف أو أفرشة لتغطية أرضية الخيمة .

وفي الثانية عشرة يمضي ليتوضأ ويصلي ، ثم ينام حتى الثالثة ، ويصلي بعدها للمرة الثالثة ، ثم يركب البغل ويجلب العلف لقطيعه : ويسوق في الخامسة خيله ويغاله للشرب ويعلق لها فوق رأسها خارج الخيمة عمارة فيها الشعير كما يفعل الفلاحون عندنا ويقدم له

الحشيش بعد ذلك وبعد أن تغلف الماشية يتناول السيد طعامه ، فيجلس فوق الحصيرة ،  
لحميل له زوجته طعامه اليومي في قطعة خشبية ذات أرجل : ويتكون طعامه من الكسكسي  
المحبوب . وهو طعام ، تعده المرأة على الصورة التالية :

تذر الدقيق في قصعة خشبية ، عرضها قدمان ، وترش فوقه قليلا من الماء ثم تفتله بيديها  
وتضيف اليه الدقيق والماء عدة مرات . وهكذا تنشأ عن الفتل الطويل حبيبات تشبه الدخن .  
وبعد ذلك تملأ قدرا عادية بالماء ، وتضعها فوق النار ، وبمجرد أن يغلي الماء تأخذ اناء آخر  
في اسفله ثقب عديدة . وتضعه فوقه بحيث يلائمه تماما وتضع الكسكسي في الاناء الاعلى ،  
وتغطيه بغطاء أو بقطعة قماش . وبعد نصف ساعة ينضج بواسطة البخار الذي يتخلله ، وترفع  
الاناء وتضع الطعام في اناء خشبي وتفرزه بيديها . ثم تضع فيه العسل او الزبدة ، أو اللبن  
الخاثر أو الزيت ومزق اللحم . وقد أعجب الفرنسيون الذواقون أنفسهم بهذا الطعام .

ويهيء العرب طعاما آخر لذيذ يصنع من نبات القرينة ، ولهذا النبات ، ساق يبلغ ارتفاعه  
قدما ونصفا ، وزهرة كثيفة وشوك طويل . وتقدم غذاء للجمال خاصة ولأزهاره نويات لحمية  
تقطع وتطبخ وتهيا بالزبدة ولا يعرف ساكن هذه المنطقة نوعا من الخضر غير البصل ، الا أنه  
يعرف كيف يجعل أطعمته العادية لذيدة المذاق عن طريق طبخ أعشاب مختلفة .

وبعد العشاء يذهب العربي البدوي في السادسة لأداء الصلاة من جديد ، وعقب ذلك  
تجتمع العائلة ، وتشغل النار وتنقي القمل الذي تعاني منه بسبب ملابسها الصوفية ، فتمسك  
بالثياب فوق النار قطعة قطعة وتنفضها بالعصى ، ثم تنام والعربي الريفي أكثر حرية في اختيار  
زوجته من الحضري فهم يتزاورون في خيامهم ، ويتعرفون على نسايتهم وبناتهن ، فاذا عجب  
رجل بفتاة ، فانه يحاول أن يعقد صفقة مع أبيها ، فان اتفق معه اشترى للعروس لباسا ،  
يتكون من قميص فضي أبيض ، ولباسا عاديا بكمين طويلين (قندورة) وحائك يتراوح طوله بين  
6 و 7 أذرع ، وتتخلله عادة خطوط بيضاء أو حمراء يلقي فوق اليدين والكتفين ، ويلف حول  
الجسد ويمسك بأبر فضية . واذا لم تحضر هذه الثياب ، فان العروس تترك دار أبيها عادية  
تماما . وبعد ايام من حمل الكسوة اليها يقود العريس بغلا ، فوقه مقعد يحيط به حائك  
أحمر ، أمام خيمتها ويجلسها فوقه ويغطي رأسها ووجهها بازار أبيض يلاقيهم أهل العريس ،  
برفقة أهلها - احبابها الى دوار العريس أو خيمته . وفي وسط الطريق يلاقيهم أهل العريس ،  
وينضمون الى الموكب وهم يطلقون نيران مسدساتهم وينادقهم مبتهجين .

ويجلس الناس في خيمة واسعة يأكلون ويشربون والنساء جالسات بمفردهن ، ولكنهن يرين الرجال ويراهن الرجال ، وفي المساء يذهب الكل خارج الخيمة ويشعلون النار في أماكن مختلفة ، ويقضون نصف الليل في الرقص ، ولا يرقص الا النساء ، أما الرجال فيتفرجون ويطلقون النار بدون رصاص نحو أرجل الراقصات ، فيرفعن أصواتهن في زغردة ، وتتكون الرقصات من حركات متنوعة ، يقمن بها في كل الاتجاهات ، ويحركن مناديل حريرية ، وفي كل يد منديل ، حركات مختلفة خاصة في اتجاه العينين والفم ، للتعبير عن الفرح والحزن وتنتهي حفلة الزواج بعد منتصف الليل . ويقود العريس عروسه الى الخيمة ويسلمها لأمه أو لنسائه الاخريات ليعلمنها التدابير المنزلية .

وتقوم هناك بأعمال كثيرة وهذا في الوقت الذي ينعم فيه الرجل بالراحة ، ولذلك لا تستطيع امرأة واحدة القيام بها . ففي الفجر تحلب الأبقار والأغنام ، ثم تأخذ واحدة في مخض الحليب ، بينما تنظم أخرى الخيمة ، والباقيات يسقن الماشية الى الرعيان ، وتتم تهيئة الزبدة على الصورة التالية : تعلق بعمود خشبي ذي عقب وثلاث سيقان ، في علو الانسان تقريبا ، قرية ، تحتوي على اللبن الجديد ، بواسطة حبال من أرجلها الأربع ، وتجلس المرأة أمام العمود ، وتمسك عنق القرية ، وتحركها هنا وهناك بدون انقطاع ، وهكذا تنشأ الزبدة بعد مدة قصيرة والقرية ليست نظيفة تماما ، وكذلك اللبن لأن شعر الماعز يوسخها ولكن العربي لا يقرف ، فهو قليل النظافة ، ويأكل الزبدة أوبيعها .

وبعد ذلك تجلس امرأتان خلف المنسج ، لتنسجا البسة للرجل ولانفسهما وللاطفال ، وينتصب المنسج بصورة مستقيمة . ويربط به جزء من الخيوط ، وتمرر البقية بواسطة الأصابع ، وتثبت بواسطة خشب ، وفي الوقت نفسه تجلس امرأة ثالثة خارج الخيمة ، وتشد خيوط صوفية بين أربعة أعمدة ، وتنسج القماش الذي تصنع منه الخيمة وهناك أخريات يهيشن الفطور للرجل والأسرة كلها . وبعد ذلك تهتم اثنتان بتهيئة الكسكسي وتأخذ الاخريات المطحنة ، ويطحن الدقيق اللازم . وفي حوالى الرابعة مساء تذهب اثنتان لجلب الحطب ، الذي قلما تعثران عليه ، ولذلك . . . يهن أن يكتفين بالبر ، فيضعنه في الشمس ليصبح صالحا للاستعمال .

وتهتم امرأة بتقييد الماشية وربطها وحلبها ، بينما تغزل أخرى الصوف مستعملة مغزلا ذا قرص خشبي يدار بواسطة . وتمسك تحت ذراعها عصا ، لفت حولها الصوف ، وتسحب منها خيطا ، وتضعه حول المغزل ، وتديره فوق فخذه ، ثم تبعده عنها الى تحت وتدعه يدور ،

والنساء سحبهن للخيوط من الصوف ببطء ، ينشأ خيط سميك ، وبعد العشاء تعود النسوة الى عملهن السابق ، ينسجن ويغزلن حتى ساعة متأخرة من الليل .

ان النساء العربيات لا يعرفن التسلية أو الاجتماعات العامة ، باستثناء حفلات الزواج ومآثم أقاربهن ، حيث يجتمعن حول قبر ، ويطلين وجوههن بالبر ، ويندبن ويعبرن عن حزنهن عن طريق الصراخ والعيول . وهن لا يبحثن أيضا عن التسلية فماشيتهن وأعمالهن المنزلية هي كل شيء بالنسبة لهن . وهن يعشن ظاهريا في وئام مع بعضهن بعض ، واذا حدث بينهن نزاع فان الرجل يعرف كيف يفضيه بسرعة . فنساء الرجل الواحد يغرن جدا من بعضهن غير أنهن يكتمن غضبهن ، ويحاولن بوسائل سرية أن يسعدن الحظوة المفقودة ، فيتوجهن الى طالب ، يشكون اليه همومهن ، فيكتب لهن حرزا ، يحرقنه ويسقين رماده الزوج الخائن ، أو يعلقنه عندهن أو عند الزوج ويكلفهن هذا الحرز قليلا من المال ، ويروى النساء أنه قد أفادهن في عدة حالات ..



## الفصل الرابع عشر

### معيشة القبائل وأنغالهم

يختلف القبائلي ، الذي يسكن جبال الاطلس ، في بناء وجهه وزيه ونظام حياته وأعماله عن العربي والصحراوي والتركي اختلافا كبيرا ، فهو نحيف الوجه ، به سمرة تضرب الى الصفرة ، ولباسه قندورة صوفية ، وبنس أبيض متسخ ، وحذاؤه خف من الجلد الخام . ويلف ساقيه حتى الركبة بخرق ، ويربط بها خفه . ويضع فوق رأسه قلنسوة حمراء متسخة ، وتحتها قلنسوة بيضاء تظهر منها عدة بوصات . أما العربي فهو أبيض الوجه وثيابه أنظف من ثياب القبائلي لأنه لا يعمل بنفسه إلا قليلا ويرتدي في الصيف قميصا قطنيا وفوقه قندورة من الصوف ايضا تحيط بحواشيها شريط أحمر ويلف حولها حائك تتخلله خيوط قطنية ويرتدي فوقه برنسا أو برنسين ، الاسفل منها أبيض خفيف ، والاعلى خشن أبيض اللون أو رمادي . وحذاؤه من جلد الغنم الاسود او الاحمر ويرتدي أيضا قلنسوة حمراء . وليجعلها صلبة يضع تحتها عددا من القلنسوات البيض . ويدير حولها خيطا أبيض أو بنيا أو أسود من شعر الجمل حجمه نصف بوصة . والصحراوي أسود اللون أو أصفره . ولباسه يماثل لباس العربي ، غير أنه لا يحمل خيطا . يحمل حول رأسه عصا بنية أو سوداء عرضها بوصة ، وعرض الحذاء العادي يرتدي جزمة صفراء أو حمراء .

أما التركي فلونه هو نفس لوننا ، وللمحافظة على تقاليد القومية يضع فوق رأسه قلنسوة حمراء ويحيط بها عمامة من أي لون كان ، وسروالاً قصيرا له صدرية ضيقة الكمين ، ويرتدي فوقها سترتين ، وفي قدميه حذاء أسود أو أبيض . ويسكن في الغالب بالمدن ، ويجد المرء هنا

وهناك تركيا يشتغل بالفلاحة ويشتغل الأغنياء بالتجارة ، أما الفقراء فعليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية، والكراغلة ، الذين تربطهم بالأتراك قرابة الدم ، يشبهونهم في اللون والتربية والزري ، وكانوا أخلص أتباع أحمد الباي وحماة .

ويسكن القبائلي القرى والمدن الصغيرة النقية الهواء ، التي لاتقع في السهول وانما تقع فوق قمم الجبال ، وهي مبنية من الحجارة على الطريقة الأوربية وتحيط بها الحدائق التي تلتهم فيها الغلال البديعة . ولذلك يحن القبائلي الى مسقط رأسه مثل السويسري . وتتمثل أعظم ثرواته في غابات الزيتون ، التي تمتلئ بها الهضاب . وبمجرد أن يسود الزيتون ، ينفض من الاشجار ، ويلتقط من طرف سكان القرى المختلفة . وتوجد أمام كل قرية « دشرة » فوق ميدان واسع معصرتان أو ثلاث معاصر ، ويعمل فيها كل العزاب من الذكور والاناث ، وهي تمثل أعيادا بالنسبة لهم ، تختم بالرقص والموسيقى في بهجة كبيرة .

والزيت الجديد خاثر جدا لونه أخضر غامق وله طعم لذيذ ، ويوضع ، مصفى كان أو غير مصفى ، في جلود الماعز ، وينقل فوق البغال الى أبعد القرى ويباع فيها . ويدعى هناك زيت القبائل ويستعمل في جميع الأطعمة ، ويجب التفريق بينه وبين نوع آخر يدعى سيسنى ، يستخرج من زيت مر ، وهو فاتح اللون وذو طعم كريه ، ولا يستعمل الا بمثابة الوقود . وفي الصيف يجمع القبائل من الزيتون العذب كمية كبيرة من الزيتون الأخضر ، ويشق طولاً وعرضاً بسكين ، ويوضع لفترة وجيزة في ماء ساخن مالح ثم يؤكل ، وطعمه مر ، ولكنه مقبول .

ويشتغل القبائلي كثيرا بتربية النحل ، ويستعمل لذلك سلالا طويلة من الخيزران أو بيوتا صغيرة من الطين . ويضع السلال خلف بيته ، فيدخلها النحل بنفسه . ويبلغ ارتفاع البيوت الطينية ثلاثة أقدام وعرضها قدمين ، وهي مزودة بجدران في داخلها ومقسمة الى غرف ، وبينها خارج القرية حيث تكثر الزهور ، وإذا شاهد القبائلي تجمع قدر كاف من النحل ، فانه يكسر البيت ، ويأخذ العسل والشمع ويبيعهما في المدينة ، وطعم العسل جد لذيذ ويوجد بكثرة .

ويمتاز القبائل بصناعة البنادق الجيدة ، ويبلغ طولها 6 أو 7 أقدام ، ولها ماسورة مشمئة لا مربعة . ومقبضها يمتد الى وسط الماسورة ، وقاعدتها ذات زوايا ، وهي مزينة عادة بحجارة أو جواهر صغيرة ذات ألوان متعددة وأسفلها مغطي بنحاس أو بخشب جميل ، والماسورة موصولة بالمقبض بواسطة ثمان أو عشر حلقات فضية . أما القفل فيشبه ما هو عندنا ، الا أن القدر طويلة ، وعرض غطاها بوصتان أو ثلاث بوصات ، ومبرودة طولاً ، لتطلق النار بصورة أجود ، والزناد في نفس الحجم ، ويحتوي على حجر ، بينه وبين المربع بوصتان أو ثلاث بوصات ،

ومع ان هذه البنادق ثقيلة جدا ، فانهم لا يرغبون في تبديلها بالبنادق الاوربية لانهم لا يثقون في بقائها مدة طويلة نظرا لصناعتها الدقيقة . ويصنعون البارود بانفسهم أيضا ، وهو سميك وليس له حبيبات متساوية ، لانهم يجهلون طريقة تنقية ملح البارود من أجزائه الترابية ، ولذلك فهو قليل القوة .

ويبدلون قصارى جهدهم في استخراج المعادن التي تزخر بها جبالهم ، وقد أراني أحد وجهائهم عددا من السبائك الفضية ، طولها ما بين 15 و 16 بوصة ، كان قد أمر بنفسه باستخراجها وصهرها . ويوجد عدد كبير من مزيفي النقود ، يقلدون خاصة العملة الاسبانية والفرنسية بصورة خادعة ويدسونها قطعة نقدية بين العرب وسكان الصحراء .

ويعتبر الصيد أكبر تسلية بالنسبة للقبائلي ، ولا سيما صيد الخنازير البرية والتمور ، وبيع الخنازير للفرنسيين أما التمور فيهمه أن يبعدها عنه ويظل في النهار يطوف في الجبل ويحمل معه كذلك سكينه ، فاذا اوجد مرقد النمر الذي يعرفه جيدا ، فانه يثبت بندقيته ليلا في الدغل ، ويعلق أمام فوهتها قطعة لحم ، ويمرر خيط عبر حلقة توجد خلف الفوهة متصلة باللحم . ويوصله بعقب الزناد المفتوح ويعود بعد ذلك الى بيته بهلؤ ، منتظرا ما سيحدث . فاذا رجع النمر من نهبه ، شم في الحين رائحة اللحم ، وأسرع اليه في نهم ، ومسكه بفمه بقوة ، وسحب اللحم مع الزناد في آن واحد ، فيتلقى طلقة عبر راسه ويسقط أرضا جثة هامدة ويعود القبائلي في النهار ، فيسلخه وبيعه للفرنسيين او في قسنطينة .

ويتعلم القبائلي إطلاق النار مند صغره ، وقلما ينجم منه الحيوان الذي يطارده ، ولذلك ، فان البدوي لا يحب أن يعاديه . ويرتدى ثيابا خفيفة جدا عندما يمضى للحرب فبالإضافة إلى الحائك ، الذي يثبت فوق رأسه ويلفه حول جسمه ، يرتدى فقط القلنسوة الصفرة الحمراء ، او يذهب عارى الرأس تماما ، ويترك ضفيرة طويلة متشابكة تبتدئ من عنقه . ويحمل بندقيته فوق كتفه ، ويدخل سكينه ومسدساته في حزامه ، الذي تثبت فيه في الوقت نفسه جعبة الخراطيش . ويهاجم العدو بشجاعة ، يرافقه نساؤه اللواتي يضربن الطبل ويصرخن بصورة فظيعة . وهو لا يحارب أبدا في مجموعة ، وإنما يندفع بمفرده كقناص الى الأمام ، ويعرف كيف ينتفع بسرعته ومهارته في الدوران .

واذا حتم عليه أن يفر ، فانه يطلق النار قبل ذلك ، ويحشو بندقيته أثناء الركض ، ويستدير وينبطح فوق ظهره طولا ، ويضع وهو في هذا الوضع ، رجله اليسرى فوق اليمنى ، ويضع ماسورة البندقية بين ابهام قدمه والاصابع الاخرى ، ويراقب عدوه الى أن يصبح في مدى الرمية .

وعندئذ يضغط الزناد ، وقلما يخطئ عدوه ، وينهض بسرعة ، ويركض مسافة بعيدة . وكثيرا ما شاهدت عشرين او ثلاثين شخصا يطلقون النار على قبائلي ، دون أن يتمكنوا من قتله . ولا يجب القبائل أن تكون لهم مشكلة مع العربان في السهل ، وإنما يستدرجونهم الى الجبل ، حيث تكون لهم السيادة . ولذلك يننون قراهم فوق قمم الجبال ، ليحموا أنفسهم من الغارات ، واذا اقترب عدو من مساكنهم ، فإنهم ينادون بعضهم بعضا من جبل الى آخر . وبعد فترة قصيرة يتدجج الجميع بسلاحهم .

وتحيط الاسوار بالقرى كلها ، وهي محصنة جدا ، لا يستطيع العدو مهاجمتها بدون مدفعية . وقد برهنوا على شجاعتهم ومهارتهم في حربهم مع الفرنسيين . فتراهم يتسللون ليلا على أربع الى التحصينات الفرنسية . ويحاولون اغتيال الفرنسيين . ولكن الذي أعلمه أنهم لم ينجحوا حتى الآن في محاولات الاغتيال هذه . ويتسللون كذلك بين التحصينات ويقتلون المعمرين الفرنسيين الذين يسكنون خلفها . ويتقسمون عادة الى قسمين ، قسم راجل ، وقسم راكب ويعسكر الفرسان خارج الخطوط الفرنسية ، لحماية الراجلين اذا طاردهم الفرنسيون عند انسحابهم ببطء رغم انصباب نيران المدافع عليهم من جميع البنايات ، ويدافعون عن أنفسهم حتى يصلوا الى جبالهم ، فيجدون الامن لان الفرنسي لا يطاردهم هناك .

وتحدث بينهم أيضا اشتباكات صغيرة لا تستعمل فيها الاسلحة ، فيجتمعون في عدد كبير ويتقابلون ويترامون بالحجارة ، ويستمر ذلك الى أن يقتل أو يجرح عدد كبير من أحد الطرفين . ويبدأ تلك الاشتباكات عادة سكان القرى المجاورة لاسباب تافهة وفي أثناء ذلك يتولى النساء حمل الحجارة الى ازواجهن وتشجيعهن .

وتوجد عند القبائل طبقة فقيرة جدا ، لانها لا تجد رغبة في العمل ، ومن ثم يذهب أفرادها بالمئات الى جيش الباي ، فيقبلهم كلهم شبانا كانوا أو شيوخا ، سليمين أو مشوهين ، واذا هم حملوا معهم لباسا ، فذلك حسن بالنسبة لهم ، لان الباي لا يقدم لهم البسة . وإنما يعطيهم بندقية قديمة ، يخصم ثمنها شيئا فشيئا من راتبهم الشهري وهو أربعة ريالات . وقوات الباي سيئة جدا ، وبصورة مطلقة ، من النامية العسكرية ، فليس لها زي رسمي ، بل يرتدي كل جندي مالدیه ، فيحمل هذا لباسا جميلا وراقيا ، ويحمل ذلك لباسا ممزقا متسخا ، ويمضي واحد ببندقيته ومسدساته ويغطانه الى المعركة ، بينما يمضي اليها اخر ، وربما يكون قد باع ببندقيته ، وليس معه سوى هراوة ، والجيش لا يتلقى البارود الا قبل الهجوم

بفترة قصيرة . ونظرا لغلاته في قسنطينة فان الرجل لا يستطيع أن يأخذ أكثر من عشر خراطيش  
وحين تنفذ يجب عليه أن يحارب بالسيف .

وقلما يبقى القبائل مدة طويلة في خدمة الباي . فبعد أن يشارك في بضع معارك ويقطع عددا  
كبيرا من الرؤوس ، يتقاضى عليهما مبلغا محترما ، يتسلح كما ينبغي ، ويترك ، مع عدد  
كبير من جماعته يتراوح بين العشرين والثلاثين ، خدمة الباي ، ويلتحق بالفرنسيين الذين ،  
يرحبون بهم كل الترحيب ، وهناك تقدم لهم ملابس على الطريقة التركية فيكونون فرقة خاصة  
ذات زي جميل . وأغلبهم يفرون من هنا أيضا بما لديهم وينهبون ما يستطيعون نهبه ، ويعودون  
فوق ذلك الى الباي باسماء مزيفه . ونظرا إلى أن جيش الباي لا يعرف الضباط ولا ذوي الرتب  
العسكرية ، فانه من السهل عليهم أن ينتسبوا إلى الجيش مرة أخرى مجهولي الاسم ، أو أنهم  
يروون كيف اعتقلهم الفرنسيين وأرغموهم على الخدمة ويحدثونهم عن التجارب التي عاشوها  
بين الكفار ويحملون معهم أيضا أسلحة فرنسية يبيعونها بثمن مناسب ، ويكذبون على الباي  
بمختلف الطرق الممكنة .

وهكذا حمل عدد من القبائل ستة أحصنة مروضة على السباق ورووا للباي كيف سرقوهم  
من الفرنسيين في المرعى ، وكانت في الواقع أحصنة منبوذة ، اشتروها بثمن بخس وابتاعها  
الباي منهم لندرتها بثلاثمائة ريال . وروى له قبائلي آخربأن الفرنسيين يقتلون الأسرى المسلحين  
وقد رأى بعينه كيف توضع ثعابين صغيرة فوق صدور المسلمين ويطونهم ، فتمتص دماءهم الى  
أن يموتوا . ولما لم يصدق الباي ذلك ، دعاني وسألني بحضور ذلك الكذاب ان كان ما يرويه  
صحيحا . وأدركت كذبه في الحين ، وقلت له ان هذه الثعابين الصغيرة ليست سوى علق ،  
وصفه الأطباء للقبائل المرضى بالمعدة ليمتص منهم الدم الفائض وغير النافع ، فاقنع الباي  
بذلك ، وأمر باعتقال القبائلي ، واتهمه بالجوسسة وقتله بعد أيام .

وحين يصل القبائل الى جمع المال من جديد ، يفرون من الجيش للمرة الثالثة ثم  
لا يعودون مرة أخرى . وتذهب كل محاولات الباي في القبض على الفارين عبثا . فالجبال  
ليست تابعة للبايلك ، ولا يجمع المرابطون فيها سوى ضرائب قليلة . ويخشى الباي الاصطدام  
بالقبائل ، ولا يحارب العرب إلا اذا تأكد من حيادهم .

وعلى الرغم من أن القبائلي ليس نظيف الثياب ، ولا هو من هواة الثياب الفاخرة ،  
فان الاولاد ، وأولاد أولادهم يحتفظون بالثوب الذي حمله أبوهم ما يناهز مائة سنة ، ويرقعونه  
رقعة الى ان يتساقط عن الجسم ، ولا يطرح حتى في هذه الحالة لعدم صلاحيته بل يباع في



سوق من الأسواق ، حيث لا يعدم أن توجد مرابط يبدى رغبته في شرائه ، ومع ذلك فإنه يحب النظافة في بيته ويحب أن يتزين نسائه . والبيوت مؤثثة بصورة مريحة ولها حوش مخصص للماشية ونظرا الى أنهم لا يربون الماشية الا قليلا ، فان نساءه يحرصن دائما على نظافتهن وهن يرتدين نفس اللباس الذي يرتديه نساء العرب ، الا أنهن يرتدين ، زيادة على الحائك ، قميصا وقندورة صوفية وفي أيديهن وأرجلهن أساور وخلاخيل كبيرة في عرض اليد أحيانا .

ويرزين رؤوسهن بصفيرتين ، مصنوعتين من خيوط صوفية زرقاء ، تتدليان من الجانبين ، ويثبتن بهما حلقتين فضيتين مرصعتين بالجواهر ومعلقتين فوق الأذنين ويمتزن عن الاعرايات بجمال الوجه . ومع ذلك فانهن لا يحتجبن ، وإنما يمشين بوجه عار في البيت وخارجه . والقبائل يتزاورون في بيوتهم بدون أية كلفة ولا يظهرون الغيرة عندما ينظر رجل آخر الى زوجاتهم أو يخاطبهن ، ويهتمون كثيرا بتربية الأطفال أكثر من اهتمام غيرهم ولديهم مدارس يعلم فيها . المربطون الدين والقراءة والكتابة . ويعلمون أولادهم الصناعات اليدوية ، وكثيرا ما يرسلونهم الى قسنطينة أو تونس .

## الفصل الخامس عشر

### طريقة معيشة عرب الصحراء وأعمالهم

عرب الصحراء هم سكان المنطقة الحارة ، التي تبتدئ بسلسلة جبال الاطلس الجنوبية وتضيع في صحراء رملية لا حدود لها . وليس لارضها سوى آبار قليلة ، بحيث ان المرء يسير ما بين ست وسبع ساعات دون ان يجد ما يطفى به عطشه . ويحتوي قسم منها على نباتات قصيرة ، بينما يحتوي القسم الآخر على اعشاب طويلة حادة جدا وصلبة ، لا تأكلها الحيوانات . وليس هناك غير اماكن قليلة ، توجد بها الآبار ، تحتوي على كالأ جيد ، ويسكن حولها الناس وتمتلئ السهول الممتدة على ابواب الصحراء باطلال مدن قديمة وبنيات مفردة بينها حجارة تحتوي على نقوش رومانية . (49)

ويعثر المرء في الجهة الاخرى من الجبال على بضع مدن صغيرة لاتزال مأهولة مثل تبسة وبسكرة . وتسيطر رياح السموم على هذه المنطقة ، ويتعرف المرء على وصول هذه الرياح الرملية الحارة بواسطة شدة الحر الخانقة ، التي تسبقها ، ويشاهد عن بعد على شكل سحابة من الغبار ، ترتفع وتتدحرج في السهل . وعندئذ يرتمي الناس وكذلك الماشية ، على وجوههم فوق الارض ويبقون في هذا الوضع ما بين 15 و 20 دقيقة إلى ان يمر ، ويعثر المرء هنا ايضا على النعامة . وقد حمل عرب الصحراء عدة مرات نعامة يافعة ارتفاعها اربعة او خمسة اقدام هدية إلى احمد باي .

وفي الصحراء قسم كبير ليس له حاكم ، وقسم آخر يتراسه شيوخ ، يختارون من طرف رعاياهم . وقد عين الباي صهرا له شيخا للعرب ، وفر معه ايضا فيما بعد .

وسكان الصحراء يسكن بعضهم الخيام ، وبينهم بعضهم الآخر بيوتا من الطين والحجارة وتمثل ثروتهم في قطعان الجمال والاغنام وغابات النخيل . ويتاجرون بحجارة كبيرة بالتمر والصوف . وتقود القوافل ما بين جملين وثلاثمائة جمل إلى تونس وقسنطينة . اما الغلال فانهم لا يزرعون منها إلا ما يسد حاجتهم الذاتية . وتقوم الجمال لديهم مقام البقر المعلوم عندهم . فيشربون حليبها . وياكلون لحومها ويستعملونها لحمل الاثقال . وحليب النوق دسم وذو طعم حارق جدا بسبب نبات الحسد الذي تاكله الجمال . واللحم عديم الدهن . اجمر فاتح . ولا بد ان يطبخ مدة طويلة قبل ان يصبح صالحا للاكل . ومذاقه يشبه مذاق لحم الحصان إلى حد كبير . وتوضع التمور . بمجرد ان تنضج وتجمع . في الشمس لتجفف وتزول عنها رشاوتها ودهانها ، او يدك ايضا في جلود الماعز وتوضع فوقها حجارة ثقيلة ، ثم تباع . وتوجد في هذه المنطقة اشجار البلوط ايضا . ولثمارها شكل الثمار الموجودة عندنا . إلا ان طعمها ألد . وحين تؤكل خضراء فان مذاقها لا يخلو من مرارة اما حين تحمص فوق النار في اواني طينية ، فانها تصبح ذات مذاق يشبه الجوز .

ويزرع سكان الصحراء نباتا ، يدخنه العرب والأتراك بكثرة يدعى الكيف ، ويشبه نبات القنب عندنا . وبعض اوراقه طويل وبعضها الآخر قصير وتقتلع سيقانه في الحريف وتجفف وتباع بكميات كبيرة او صغيرة . ويقتلع المدخنون الاوراق الصغيرة ، ويقطعونها بسكين قطاعا صغيرة ويدقونها ويخلطونها بتبغ قليل مدقوق ايضا . ويستعملون في تدخينها قصبه رقيقة . طولها قدم . بغليون في حجم قمع الخياط ، وفي مقاهي قسنطينة يجلس الناس في حلقة . ويسحب الواحد منهم بعد الآخر سحبتين او ثلاث من نفس القصبه ، ويبلغ الدخان ولا ينسفه الا بعد ان يصله الدور للمرة الثانية . وتصبح المجموعة كلها بواسطة غليونين من هذا النوع سكرى ، تغط في نوم عميق .

وكثيرا ما كنت اضطر هناك إلى لوم نفسي على اننا نحن الاوربيين لا نعرف كيف ندخن . فقد صعب علي ان اتعلم تدخين الكيف او ما يشبهه . والنساء هناك لا يدخن . إلا ان كل واحدة منهن تحمل علبة سعوط ، لاتأخذها في انفها . بل تضعها كزهر الربيع في فمها . وهم يعدون السعوط بانفسهم . ذلك انهم يحشون التبغ بخشب إسفيني الشكل في اواني طينية شبيهة بالزهرية ويخلطون كتلها بقليل من الشب . وبعد ذلك يصب الحساء فيتم إعداد التبغ .

وجبال سكان الصحراء غنية بمعادن الملح . ولهم تجارة واسعة بالملح الذي يطبخ او يجذونه مجفقا بفعل الشمس ، وكذلك مناجم الملح التي يرسلونها إلى قسنطينة في حجارة تزن

قنطارين . وهذه المدينة تستورد من هناك ايضا كثيرا من خشب البناء إذ توجد هناك اشجار العرعر ، يتراوح طولها بين 18 و 24 قدما ، وسمكها قدم واحد ، والخشب ثقيل جدا ، ويبقى لمدة طويلة . ويزداد متانة كلما طالت مدة وجوده في البناية . وهذه الجبال هي مسكن الاسود ايضا ، فيشاهد المرء قطيعا منها . يتراوح عدده بين الثلاثين والاربعين ولذلك فان الأهالي لا يسكنونها ، وإنما تعتبر ملجأ للمطاردين من طرف الباي ، والغريب أن الصخور تحتوي على مغارات توجد فيها من حين لآخر قطع نقدية . فقد حمل سكان الصحراء عدة مرات إلى الباي قطعاً فضية بشكل طويل مربع ، مكتوبة باللاتينية ولكنها لا تقرأ .

وتدور في فم الشعب حكايات بدیعة عن هذه المغارات والجبال كلها . من بينها ما رواه لي الممالك من أن في هذه الجبال مغارة ، يلاحظ المرء في مؤخرتها كومة كبيرة من الذهب ، ولكنه لا يستطيع الاقتراب منها ، لأن بابها رومانيين عنيدین يرفع كل منهما سيفه ضد الآخر ، ويسدان المدخل — فحبذا لو أن الحاكم الحالي لقسنطينة أخذ على عاتقه البحث عما إذا كانت حقيقة مغارة ، تقف أمامها تماثيل رومانية ، ظننا خيال الأهالي أناسا أحياء . — وقد حدثني الممالك أنفسهم عن مغارة أخرى ، توجد بها أيضا كنوز كبيرة من الذهب والفضة . ومن السهل على المرء أن يصل إليها ، فإذا أخذ منها شيئا ، تكون بالمدخل جدول عميق ، يستحيل عليه الخروج منها ثانية ، غير أن الجدول يختفي بمجرد أن تعاد الكنوز إلى مكانها . وقد حاول عربي عدة مرات أن يحرز على شيء من الذهب ، ولكنه فشل في ذلك دائما بسبب الجدول ، وأخيرا خطر بباله أن يأخذ معه كلبه ويقدم له عدة قطع ذهبية في الخبز ليلعها . وقد نجح هو نفسه في الخروج ثانية ، ولكن الكلب لم يستطع عبور الجدول إلا بعد أن أخرج الذهب الذي بلعه !

وكان بعض ما يتصورنه خارقة من الخوارق يعود في الحقيقة إلى ما يظهر لهم من أنه كذلك منها مثلا الأضواء التي تضلهم في الطرق المعروفة لديهم جيدا حين يرسلون فرادی من المعسكر إلى المدينة أو من المدينة إلى المعسكر . وقد وقع لي أنا نفس ما يشبه ذلك سنة 1836م عندما دعيت إلى مقابلة الباي في المعسكر ، ففوجئت بظاهرة طبيعية أخرى .

صعدت مع مرافقي في المساء قبل غروب الشمس جبلا صغيرا ، ولما وصلت إلى قمته لمحت في دهشة بحيرة كبيرة كما لمحت خلفها المعسكر في الجانب الآخر من الجبل وعندما سألتهم كيف نصل إلى هناك ما دام طريقنا يمر بالبحيرة مباشرة ، وليس هناك أثر لطريق آخر ،









## الهوامش

- 1 — كتب المصنف بهامش صفحة 48 كلمات الشهادة ، التي أضاف إليها المؤلف كلمة قولوا ، بصورة صحيحة .
- 2 — يبدو أن المؤلف لم يسأل مرابطا ، وإنما سأل طالبا بليدا !
- 3 — ذكر موريتس فاغنر (رحلات في ولاية الجزائر ، لا يتسنغ 1841 ، ج 1 / 214) أن ابن زعمون كان يسكن حوش بني شنشنة قرب وادي يسر .
- 4 — أنظر ما يقوله صاحب المرأة ، حمدان خوجة ، ترجمة د . الزيري ، الشركة الوطنية 1975 ، ص 59 .
- 5 — أورب فاغنر (رحلات 1 / 214) أن سيدي علي بن عيسى كان يعيش في قرية قرومة ، وأن عمره كان يناهز المائة ، وذكر المؤلف نفسه في مكان آخر (ج 1 / 180) أنه توفي في صيف سنة 1835 ودفن في قرية فليسة .
- 6 — لعل حالة المؤلف النفسية هي التي جعلته يبالغ في تقديره ، والا فكيف يمكن احضار أكثر من ثلاثة آلاف امرأة في بضع دقائق ؟
- 7 — ورد اسمه عند محمد الصالح العنري ، تاريخ قسنطينة ، ص 117 ، محمد بن البجاوي ، وانظر كذلك مذكرات أحمد باي ، ترجمة د . الزيري ، الشركة الوطنية 1973 ، ص 73 .
- 8 — يتحدث أحمد باي في مذكراته (ص 25 وما بعدها) عن صراعه مع إبراهيم باي .
- 9 — تحدث العنري (ص 88 — 91) عن أخبار هذه الثورة .
- 10 — هذا مخالف للرأي الشائع الذي يقول أن أحمد باي كان في الرابعة والخمسين من عمره سنة 1834 ( أنظر السياسة العثمانية ، تأليف أرجمند كوران ، ترجمة الدكتور التميمي ، تونس 1974 ، ص 80 ) ، ويجدر بنا أن نلاحظ أن شلوصر يقدم هذا الوصف للباي سنة 1832 . أنظر أيضا مذكرات أحمد باي ص 6 .
- 11 — لعل المؤلف يقصد المعركة التي وقعت أيام حسين باي مع الجيش التونسي الذي حاصر قسنطينة بقيادة الكاهية سليمان وانجليز باي ، أنظر الحاج أحمد المبارك ، تاريخ حاضرة قسنطينة ، الجزائر 1952 ، ص 17 .







الا أنه أضاف في النهاية معلومات أخرى ، وهي أن أحمد باي قد أصبح منذ احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة يطوف بالحدود التونسية ، وقد تخلى عنه أعوانه ولولا حماية الحراكنة له لقتله العرب أو سلموه الى الفرنسيين . وقد ترك الآن ( سنة 1839 ) أعماله الحربية ، وكان آخر عمل حربي قام به هو أنه هاجم في شهر أكتوبر ( سنة 1837 ) قبيلة قرب غالملة ، غير أنه انسحب بسرعة عندما اقتربت منه فرقة فرنسية . ويضيف فاغتر أن مظهره تركي تماما ، له لحية ضاربة الى الحمرة ، ونظرة حواء ، وقامة متوسطة ، وأبرز خصائصه التعصب والقسوة والشهوانية .

43 — تحدث فاغتر ( رحلات 3 / 332 — 333 ) عن صائد هذا وقال عنه انه ولد ، حسب روايته ، في مدينة دريسدن ، والتحق بالفرقة الأجنبية ، ولكنه أسرف في منطقة الجزائر ، وأخذ الى المرباط سيدي علي بن عيسى بجبال جرجرة ، فأسلم على يده ، وعاش هناك مدة طويلة ، وعومل معاملة حسنة وكان يتمتع بنصيب كبير من الحرية . ولما سمع أحمد باي بأن مهنته صناعة الخراطيش ، طلب من المرباط أن يتنازل له عنه ، فصرفه المرباط رغم أنه كان قد ألفه وتعود عليه ، وودعه والدموع في عينيه ، وأكد له بأنه سيعيش في قسنطينة حياة أكثر سعادة . واستقبله أحمد باي في بداية الأمر استقبالا حسنا ، وقدم له بيتا وزوجة ، ومنحه كل ما يحتاج اليه لاقامة معمل ، الا أنه لم يلبث أن كلفه مالا يطيق وأرغمه على العمل حتى درجة الارهاق . وكان يأمر بضربه بالفلقة كلما توانى في تحضير الخراطيش المطلوبة ، وكانت آثار الضرب ترى في قدميه . ولعب صائد أثناء الحصار الثاني لمدينة قسنطينة دورا رئيسيا في الدفاع عن المدينة وتبيل الاشراف على احدى البطاريات . وعندما فتح الفرنسيون نيران مدافعهم من فوق كدية عاتي لضرب السور وتهديمه ، أعلن صائد أن المدينة قد ضاعت ، فاغتاز السكان لذلك وقيده وأرسلوه الى ساحة الاعداء ، ولكن قائد البلاد ، الذي كان في سره صديقا للفرنسيين ، أنقذه من محنته . واستولى الجنود الفرنسيون على منزل صائد ونهبوه مثلما نهبوا المنازل الأخرى .

44 — يذكر فاغتر ( رحلات 1 / 346 ) أن باب قصر الباي كان يعلوه نقش محتواه : هذا القصر يعشي بصير المتفرج بجماله ، ويسكنه السلطان الحاج أحمد باشا ، نصره الله على القوم الكافرين . لقد شئت الله شمل الأعداء كما تشتت الريح الغبار . زاده الله مجدا وسلطانا ، ومنحه قصورا في الجنة ، وعمرها بملايين الحور العين ان شاء الله آمين .

45 — لعل المؤلف يعني مصطفى انجليز باي الذي عزله باشا الجزائر ونفاه الى تونس ، أنظر أحمد المبارك ، ( ص 14 وما بعدها ) .

46 — يذكر فاغتر ( رحلات 2 / 94 ) أن العرب يرون في طائر اللقلق مرباطا مسخ ، لأنه ارتكب اثما ، وقد زاد من اعتقادهم هذا أنه يبني أعشاشه فوق المساجد ، ويتصورون أنه يتوجه بدعواته الى السماء حين يرفع رأسه الى الورا ويطلقق بمنقاره .

47 — وصف فاغتر ( 3 / 147 ) المقدم يوسف بأنه مارق ايطالي ، كان قد أسره القراصنة التونسيون في

أيام طفولته ، وترعرع في قصر باي تونس ، وتعلم العربية والتركية بصورة جيدة . أنظر أيضا ما يقوله عنه أحمد باي في مذكراته ، ( ص 41 وما بعدها ) .

48 — تحدث الباي في مذكراته ( ص 39 — 40 ) عن انتشار الوباء في المدينة وعن توقفه بعد إقامة الصلوات في جميع المساجد .

49 — الظاهر أن الصحراء تعني بالنسبة للمؤلف منطقة سوق أهراس وتبسة وغيرها من المناطق الشرقية التي تحتوي على آثار رومانية .





## الفصل السابع :

- ادعاء تركي - حملة ضد المدينة وعنابة - امثلة أخرى عن القسوة - أحمد باشا وأحمد بومزراق ، باي قسنطينة - انتون غبهارد الماينسي الجمرات الملتهبة ، خرافة ... 47

## الفصل الثامن :

- حصار غير مشعر لمدينة قسنطينة من طرف الفرنسيين في نوفمبر 1836 م ..... 55

## الفصل التاسع :

- تحصين المدينة - المحاصرة الثانية لقسنطينة واحتلالها من طرف الفرنسيين سنة 1837 - وضع المؤلف الباشي - محظيات الباي - الإستسلام في حظيرة الأسود - استجواب في قسنطينة - استجواب الأخير في مارسيليا ..... 61

## الفصل العاشر :

- أخبار رفقاء المؤلف أيام المحنة ..... 67

## الفصل الحادي عشر :

- وصف مدينة قسنطينة ونواحيها ..... 73

## الفصل الثاني عشر :

- القسنطينيون تحت حكم الطاغية أحمد باي - القضاء - أصحاب الكرامات - الأعيان - طريقة الزواج - التجارة - العملة النقدية ..... 79

## الفصل الثالث عشر :

- معيشة العرب وتجهيزاتهم المنزلية ..... 89

## الفصل الرابع عشر :

- معيشة القبائل واشغالهم ..... 95

## الفصل الخامس عشر :

- طريقة معيشة عرب الصحراء وأعمالهم ..... 101

- الهوامش ..... 107





The first part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all transactions. It is essential for the business to have a clear and concise record of all income and expenses, as this will be necessary for the preparation of the tax return. The second part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all assets and liabilities. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the value of all assets and liabilities. The third part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all income and expenses. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the amount of income and expenses. The fourth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all assets and liabilities. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the value of all assets and liabilities. The fifth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all income and expenses. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the amount of income and expenses. The sixth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all assets and liabilities. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the value of all assets and liabilities. The seventh part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all income and expenses. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the amount of income and expenses. The eighth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all assets and liabilities. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the value of all assets and liabilities. The ninth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all income and expenses. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the amount of income and expenses. The tenth part of the paper discusses the importance of maintaining accurate records of all assets and liabilities. This is also essential for the preparation of the tax return, as it will be necessary to report the value of all assets and liabilities.



قسنطينة أيام أحمد باي  
وثيقة هامة وجديدة في نفس  
الوقت تتحدث عن مدينة قسنطينة  
قبل أن يتم احتلالها، وتبرز بصورة  
خاصة الصراع الذي عرفته منطقة  
الشرق الجزائري بكامله في تلك  
الفترة، كما تقدم صورة صادقة عن  
ظروف الاحتلال وملابساته العديدة،  
دون أن تغفل دور المواطنين  
في مقاومة المعتدي ومحاولتهم  
الوقوف في وجه جنوده وأمام  
مدافعه الفتاكة.

ISBN 978-9947-24-376-3



9 789947 243763